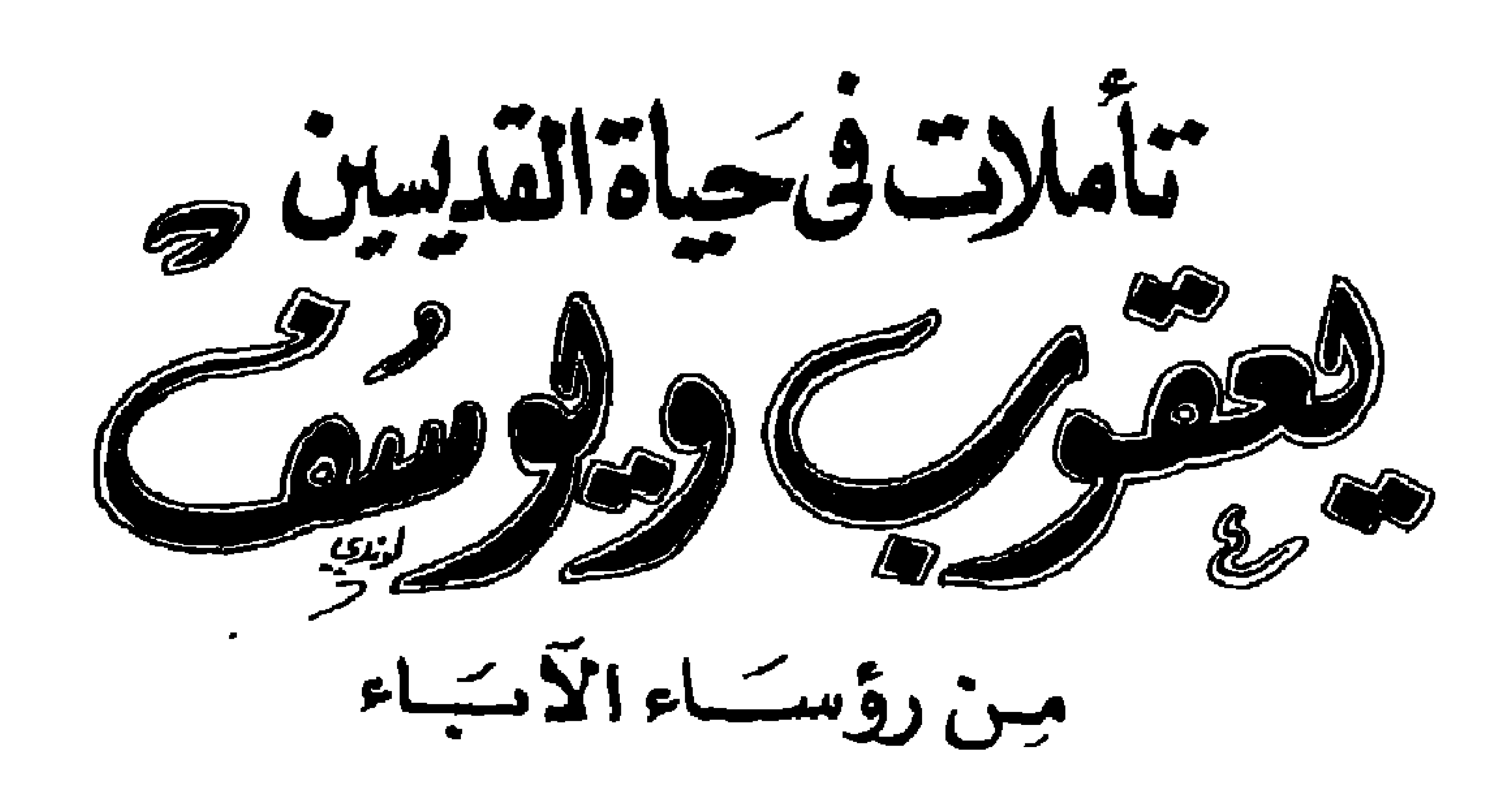
البابا شنوده الثالث



تأملات فى حياة القديسين يعقوب ويوسف

من رؤساء الآباء

البابا شنوده الثالث



Contemplation on the lives of
St. Jacob & St. Joseph
By H. H. Pope Shenouda III

1st Print
Cairo
June 1996

الطبعة الأولى
القاهرة
يونيو ١٩٩٦

الكتاب : تأملات فى حياة يعقوب ويوسف .

المؤلف : قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث .

الناشر : الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس .

الطبعة : الأولى مايو ١٩٩٦ .

المطبعة : الأنبا رويس الأوفست بالعباسية – القاهرة .

رقم الإيداع بدار الكتب: ١٩٩٦/٥١٠٩

I.S.B.N. 977 - 5345 - 31- 6



صاحب الغبطة والقداسة البابا المعظم
الأنبا شنوده الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

قصة هذا الكتاب

إنها بعض محاضرات ألقيتها على طلبة الكلية الإكليريكية في العام الدراسي ١٩٦٩/١٩٦٨ حينما كنت أدرسهم مادة (العهد القديم) .

ثم عدت إلى الحديث عن أبينا يعقوب وابنه يوسف في المحاضرات الروحية التي كنت ألقيها على الشعب في الكاتدرائية المرقسية الكبرى بالقاهرة . وذلك خلال عامي ١٩٩٤، ١٩٩٥ أي بعد أكثر من ربع قرن .

وأخيراً جمعت هذه المحاضرات ونظمتها ، وأضفت عليها . لكي أقدمها لك أيها القارئ العزيز في هذا الكتاب الذي بين يديك .

إنها محاولة للدخول في شرح الحياة الروحية لآبائنا الأولين من شخصيات الكتاب المقدس في العهد القديم .

ولقد سبق أن نشرت لكم عن آدم وحواء ، وقايين وهابيل، وموسى وفرعون، ويونان النبي. والآن عن يعقوب ويوسف . وإن شاء الله سأصدر لكم كتاباً عن (حياة داود) أتوقع أن يكون في أيديكم بعد حوالي الشهر .

على أن حياة كل من أبينا يعقوب وإبنه يوسف، تشمل دروساً روحية كثيرة من عمل الله فيهما .

كان أبونا يعقوب إنساناً ضعيفاً أمام شدة أخيه عيسو، وأمام مكر وخداع خاله لابان، وأمام صراع زوجتيه ليئة وراحيل، وأمام أخطاء أبنائه ، وما في قلوبهم من تآمر، ومن قسوة.. فكان لابد أن يسنده الله بمعونة خاصة .

قصته هي قصة إنسان يتدرج في العلاقة مع الله . من لقاء في برية .. إلى صراع لطلب البركة .. إلى ملاك يصاحبه طول حياته ، إلى منحه روح النبوة .. كيف حدث

هذا؟ إنه ما تحويه هذه الصفحات .

أما قصة يوسف الصديق، فهى قصة إنسان يتولى الله تدبير حياته كلها . بخطة إلهية محكمة وحكيمة ...

قصة الفتى المدلل .. التى تنتهى إلى قصة الحاكم الحازم .

قصة الإنسان الذى لا يدافع أبداً عن نفسه ، فيدافع الله عنه .

قصة الإنسان الناجح فىكل موقع يوجد فيه ، كابن، وعبد، وسجين، ووزير.. الإنسان الوفى لوالده، ولأخوته مضطهديه .. والأمين لله فى طاعته ، وفى الشهادة لإسمه القدوس

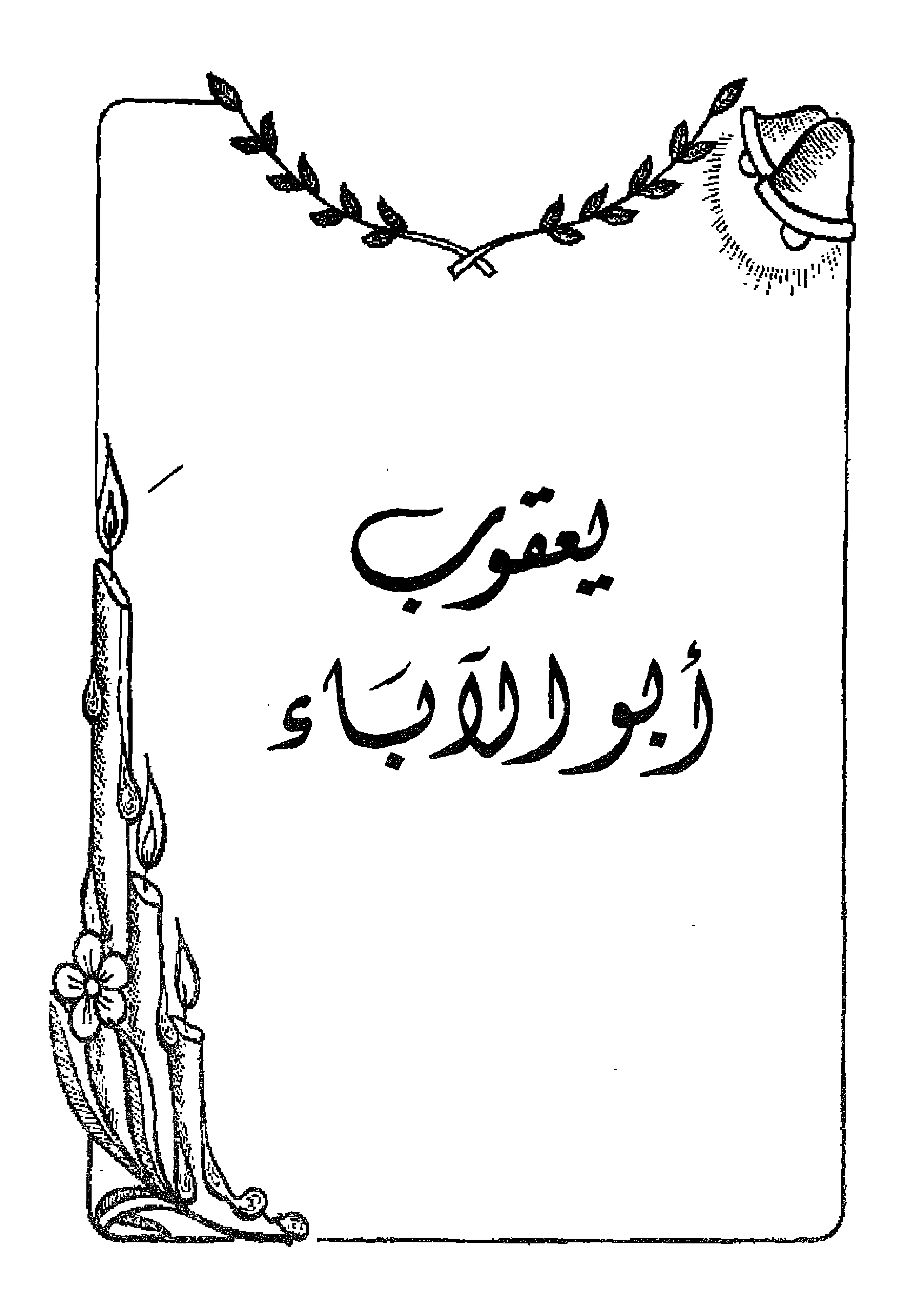
كيف عاش؟ وكيف قاد الله حياته؟ وكيف نما فى حياة الفضيلة؟ هذا ما سوف تحدثك عنه هذه الصفحات .

⌘ ⌘ ⌘

بعد هذا الكتاب عن يعقوب ويوسف، وما يليه عن حياة داود .. سأحاول أن أتابع معكم نشر سير قديسى العهد القديم . فعندى مسودات لكثير من الكتب ، تحتاج أن أخرجها من مكتبتى الخاصة فى الدير ، وأنقحها ، وأعيد كتابتها، وأقدمها للمطبعة ، بفضل صلواتكم...

ختاماً أرجو لكم جميعاً كل خير .

يونيو ١٩٩٦ **البابا شنوده الثالث**



يعقوب
أبو الآباء

يعقوب أبو الآباء
إختاره الله وأحبَّه قبل أن يُولَد

نعم ، اختاره الله قبل أن يولد . بل منحه أيضاً البركة والسيادة وهو بعد فى بطن أمه .

وقال لأمه وهى حبلى " فى بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب، وكبير يُستعبد لصغير" (تك٢٥: ٢٣) . الكبير هو عيسو والصغير هو يعقوب.

ويكلمنا القديس بولس الرسول فى رسالته إلى أهل رومية عن هذا الموضوع فيقول : "لأنه وهما لم يولدا بعد ، ولا فعلا خيراً ولا شراً، لكى يثبت قصد الله حسب الإختيار ، ليس من الأعمال بل من الذى يدعو ، قيل لها إن الكبير يستعبد للصغير . كما هو مكتوب: أحببت يعقوب ، وأبغضت عيسو" (رو٩: ١١ – ١٣) .

إن قصة يعقوب ترينا كيف أن الله إختار ضعفاء العالم ، ليخزى بهم الأقوياء (١كو١: ٢٧) .

كان ضعيفاً

نعم ، كان يعقوب ضعيفاً ومسكيناً . وكان يخاف من أخيه عيسو القوى الجبار ، رجل الصيد والسهام والنبال ...

ذلك الذى فى لقائه فيما بعد " خاف يعقوب جداً ، وضاق به الأمر" (تك٣٢: ٧) . وصلى إلى الله قائلاً "نجنى من يد أخى، من يد عيسو، لأنى خائف منه أن يضربنى الأم مع البنين " (تك٣٢: ١١) .

يعقوب كان ضعيفاً باستمرار أمام عيسو . ولم يقوَ عليه ، إلا عندما كان عيسو متعباً معيى، وقد قال " ها أنا ماضٍ إلى الموت ، فلماذا لى بكورية" (تك٢٥: ٣٢) .

إن الله يقف باستمرار أمام الضعفاء المساكين . أما جبابرة البأس المعتزون بقوتهم ،

فيتركهم إلى قوتهم ولو إلى حين . حتى يدركوا أن قوتهم لا تنفعهم بشئ، فيصرخون فى ضعف وفى التجاء إلى قوة الله ...

لقد اختار الله يعقوب الضعيف . وكثيراً ما نرى أنه قد اختار ضعفاء آخرين .

فعندما جاء صموئيل النبى ليختار واحداً من أولاد يسى ليمسحه بالدهن المقدس، وعبر أمامه كل أولاد يسى الكبار وأصحاب الوسامة ، لم يخترهم الله . بل اختار الصغير الذى كان مع الغنم ... اختار داود الصغير الذى ظل يتغنى بهذا الأمر قائلاً : صغيراً كنت فى بيت أبى ، وحدثاً كنت بين بنى أمى" .. "اخوتى كبار وحسان وهم أعظم منى . ولكن الله لم يسرّ بهم " ...

كان الناس يختارون دائماً الأقوياء . وعندما أرادوا اختيار ملك ، فرحوا بشاول أطول إنسان فى الشعب (١صم١٠: ٢٣) . ولكن الله ليس كذلك .. لقد اختار يعقوب وأحبه . وأحب فيه ضعفه ومسكنته .

العجيب أن يعقوب كانت له أيضاً ضعفاته السلوكية وأخطاؤه . ولكن عمل فيه روح الله حتى حوّله إلى ذلك القديس الذى نتشفع به فى صلواتنا .

كان من أخطائه الإعتماد على الذراع البشرى ، وعلى الحيل العالمية فى حل مشاكله...

إنه مثلاً يريد أن يأخذ البكورية من أخيه . فينتهز فرصة كان فيها أخوه جائعاً وفى غاية التعب ، يطلب منه طعاماً ليأكل ، فيقول له يعقوب " بعنى بكوريتك " و" احلف لى اليوم" (تك٢٥: ٣١، ٣٣) . وهكذا اشترى منه البكورية بما أعطاه من طعام . وهذا لا يدل طبعاً على محبة خالصة ، كما أن البكورية ليست متاعاً يباع ويُشترى! ولكنها طريقة بشرية وإنتهاز للفرص .

هناك طرق وحيل بشرية أخرى لجأ إليها يعقوب :

✠ منها أنه خدع أباه اسحق ، لكى يباركه . وألهمته ذلك الخداع أمه رفقة . نعم إنها قديسة ، ولكنها فى ذلك الموقف بالذات علمته الكذب والتحايل واستخدام الذكاء البشرى بطريقة خاطئة . ولما خاف يعقوب من خطية الخداع هذه ، لئلا تجلب له لعنة ، قالت له "لعنتك علىّ يا ابنى، اسمع لقولى .. " (تك٢٧: ١٣) . فسمع لها ...

✠ وأيضاً عندما أراد يعقوب أن يعوّض خسائره فى الأجرة من خاله لابان ، لجأ أيضاً إلى طرق وحيل بشرية (تك٣٠: ٣٧ – ٤٣) ... حتى أن خاله سار وراءه وقال له

"خدعتنى" . وكاد يصنع به شراً ، لولا تدخل الله لحمايته (تك٣١: ٢٧) .

وأمور أخرى صنعها يعقوب . ولكن على الرغم من كل ذلك ، أرانى أقف متعجباً أمام آية ذكرها الوحى الإلهى وهى :

"وكان يعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام " (تك٢٥: ٢٧) .

أى كمال هذا تقصده يارب ؟ وما مقياسه ؟ لعله بلا شك ، الكمال النسبى، نسبة إلى ذلك العصر الذى عاش فيه يعقوب . على الأقل من جهة الإيمان (عب١١: ٢١) ، وإكرامه لوالديه على قدر استطاعته، وعدم زواجه من بنات كنعان حسب وصية أبيه له (تك٢٨: ١) . ولم يفعل مثل أخيه عيسو الذى اتخذ له زوجتين من بنات الحيثيين "فكانتا مرارة نفس لاسحاق ورفقة " (تك٢٦: ٣٥) . كذلك كان عفيفاً ، ولم يكن مثل أخيه عيسو الذى قيل عنه إنه كان مستبيحاً (عب١٢: ١٦) . ولم يكن قاسياً مثله ..

على أية الحالات ، ظل الله يطهره من أخطائه التى كانت عن ضعف ، وليست عن فساد فى الطبيعة ، حتى صار أخيراً أبيض كالثلج ، وعمل فيه روح الله للنبوءة كما بارك افرام ومنسى (تك٤٨: ١٤- ١٩) وكذلك باقى أولاده (تك٤٩) . فكما قال هكذا حدث لهم..

حسب سبق علم الله ، اختار يعقوب دون عيسو ...

كما قال الكتاب " الذين سبق فعرفهم ، سبق فعينهم .. وهؤلاء دعاهم أيضاً .. وبررهم.. ومجدهم " (رو٨: ٢٩، ٣٠) . قبل أن يولد يعقوب وعيسو ، وقبل أن يفعلا خيراً أو شراً .. كانت حياتهم المستقبلة واضحة تماماً أمام الله، الذى يعرف كل شئ قبل أن يكون .

كان هو وأخوه توأمين . وعجيب أنه قيل عنهما :

تزاحم الأخوين

" حبلت رفقة .. وتزاحم الولدان فى بطنها " (تك٢٥ : ٢٢) .

إن الناس يتزاحمون فى موكب الحياة . وكل منهم يريد أن يكون السابق ، وأن يكون الأول . وليس هذا بعجيب ، ولكن العجيب أن يتزاحم جنينان توأمان !!

ولقد كسب عيسو الجولة الأولى ، وكان هو السابق ، وخرج أولاً . " خرج أحمر كفروة شعر ، فدعوا إسمه عيسو" (تك٢٥: ٢٥) . وصار هو - حسب الميلاد - البكر

والكبير .

ولكن إرادة الله فى البركة كانت غير ذلك ...

عيسو كان الكبير . وكانت إرادة الله هى "كبير يستعبد لصغير" (تك٢٥: ٢٣) . كان عيسو الأول في ولادته . ولكن يحدث أحياناً فى مشيئة الله : "كثيرون أولون يكونون آخرين. والآخرون يكونون أولين " (مر١٠: ٣١) . وهذا ما حدث مع عيسو ويعقوب .

إن وضعك الله أخيراً ، فلا تحزن ولا تبتأس .

لعله من حكمة الله أن تكون كذلك . بل يقول الرب "إن أراد أحد أن يكون أولاً ، فليكن آخر الكل ، وخادماً للكل " (مر٩: ٣٥) (مر١٠: ٤٤) (مت٢٠: ٢٧) .

كان الله يستطيع أن يجعل يعقوب يخرج من بطن أمه أولاً . لكنه أراد أن يبقيه صغيراً ، لكى ينسحق قلبه ويطلب المعونة من الله . وبنفس المنطق شاء الله أن يكون يعقوب أضعف من عيسو من جهة قوة الجسد . ولم ينتفع عيسو بقوة جسده ، وإن أخافت يعقوب !

كان عيسو رجل صيد ، يستطيع أن يُخضع حتى الوحوش .

" إنسان برية " (تك٢٥: ٢٧) . كان يعرف كيف يضرب بالسهام والنبال . كان شديداً. وربما الصيد أدخل فى طبعه شيئاً من القسوة ، أو كثيراً من القسوة . مما جعله يقول فيما بعد " .. أقتل يعقوب أخى " (تك٢٧: ٤١) . والله لا يحب القسوة ولا العنف . وكل الذين يستخدمون القسوة والعنف ، يخرجون أنفسهم من دائرة الله . وكثير من الذين حاربهم الله محاربة شديدة ، كانوا أشداء . والكتاب يقول "إن الله يقاوم المستكبرين . أما المتواضعون فيعطيهم نعمة " (يع٤: ٦) .

لقد تزاحم يعقوب فى بطن أمه ، ولكنه لم يستطع ...

كان عيسو أقوى منه وهو جنين ، فخرج أولاً ... والتزاحم لم يفد عيسو ولا يعقوب ، لأن الله كان له ترتيب خاص قد أعلنه ، ولا يبنى على التزاحم ، إنما على التدبير الإلهى والحكمة الإلهية والمشيئة الإلهية التى لابد أن تنفذ أخيراً .

والعجيب أن التزاحم استمر بين هذين الأخوين ..!

ليس فقط فى من يخرج أولاً من بطن أمه .. إنما أيضاً كان لهما تزاحم حول البكورية لمن تكون ؟ وتزاحم آخر حول البركة . من الذى يسبق فيأخذها من أبيهما الشيخ اسحق؟.. بل صار فيما بعد تزاحم بين نسلهما . ولعل هذا ما قصده الرب بقوله لرفقة "فى

بطنك أمتان . ومن أحشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب " (تك٢٥: ٢٣) . فأولاد يعقوب هم شعب اسرائيل . وأولاد عيسو هم شعب آدوم ، لأن عيسو "دعى إسمه آدوم" (تك٢٥: ٣٠) ...

يمكن لمن يبحث التاريخ أن يتتبع الحروب بين بنى إسرائيل وبنى آدوم . ولعلنا هنا نشير فقط إلى قول المزمور "أذكر يارب بنى آدوم فى يوم أورشليم ، القائلين :انقضوا انقضوا حتى الأساس منها " (مز١٣٧: ٧) .

واستمر التزاحم أيضاً بين الأختين زوجتى يعقوب :

تزاحم فى إنجاب البنين : من منهما تنجب أكثر : حتى أنهما أرادتا أن تحصلا على بنين ينسب إليهما من كلٍ من جاريتيهما . ووصل هذا التزاحم إلى لون من الصراع . حتى قالت راحيل فى ذلك "مصارعات الله قد صارعت مع أختى " (تك٣٠: ٨) .. بل كان بينهما صراع آخر حول محبة يعقوب لأىّ منهما . حتى قالت ليئة عندما ولدت رأوبين "إنه الآن يحبنىَ رجلى" (تك٢٩: ٣٢) . وقالت أيضاً عندما حبلت بإبنها لاوى "هذه المرة يقترن بى رجلى، لأنى ولدت له ثلاثة بنين" (تك٢٩: ٣٤) ...

يعقوب صار نسله شعباً ، وكذلك عيسو ...

وهنا نتذكر مرة أخرى قول الرب لرفقة "فى بطنك أمتان، ومنك يفترق شعبان" .

حقاً ، يمكن أن يصير الإبن شعباً كما صار يعقوب وكما صار أخوه. بل قد يصير الفرد الواحد شعوباً كثيرة ، وأبونا ابراهيم أبو الآباء هو مثال واضح لذلك . وبنفس الوضع نوح أبو البشرية كلها بعد الطوفان ...

ويوضح لنا هذا الأمر واجب الأبوين فى تربية أبنائهما . فكل ابن سيصير أسرة تتفرع إلى أسرات ... وكذلك كل ابنة . كما قيل لرفقة أم يعقوب وهى ذاهبة لتتزوج أبينا اسحق: "صيرى ألوف وربوات" (تك٢٤: ٦٠) .

غير أنه من جهة يعقوب وعيسو ، اختلف الأب والأم من جهتهما .

أحب اسحق عيسو ... وأما رفقة فكانت تحب يعقوب (تك٢٥: ٢٨) . ماذا كان أثر ذلك فى حياة كل منهما .؟

يعقوب أبو الآباء
فى سعيه وراء البكورية والبركة

شهوة البكورية

كانت البكورية أمراً عظيماً جداً فى زمن الآباء الأول ، تستحق أن تكون شهوة للأبناء .

فالبكر كان هو الذى يصير كاهناً للأسرة بعد أبيه ، قبل تأسيس الكهنوت الهاروني . بل إن الرب قال لموسى النبى فيما بعد " قدس لى كل بكر ، كل فاتح رحم .. إنه لى" (خر١٣: ٢). كما كان البكر فى زمن آبائنا ابراهيم واسحق ، هو الذى سيأتى منه المسيح، حسب وعد الرب لأبينا ابراهيم " ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض " (تك٢٢: ١٨) . ونفس هذه البركة أعطاها الرب لاسحق (تك٢٦: ٤) ...

سعى يعقوب إلى البكورية كان سعياً مقدساً . ولكنه لم يستخدم فيه اسلوباً روحياً ، بل اسلوباً انتهازياً .

استخدم يعقوب اسلوباً خالياً تماماً من المحبة الأخوية ، وخالياً من روح العطاء والبذل. وعجيبة هذه العلاقة بينه وبين عيسو . إنهما أخوان . وليسا فقط أخوين ، بل هما شقيقان ، بل هما توأمان . ولكن الموقف كانت تسوده بلاشك روح المصلحة الذاتية .

واستغل الشيطان الموقف فاستخدم وسيلتين متناقضتين :

فكان أسلوبه مع عيسو ، عكس أسلوبه مع يعقوب :

فبالنسبة إلى عيسو ، قال له الشيطان : بماذا تنفعك البكورية إن كنت على وشك الموت جوعاً وإعياءً . وأطاع عيسو هذا الفكر فقال "أنا ماضٍ إلى الموت ، فلماذا لى بكورية؟!" (تك٢٥: ٣٢) . أما بالنسبة إلى يعقوب ، فقال له الشيطان : أحرص على البكورية بكافة الطرق . خذها بأى ثمن ، ولو بطريقة استغلالية .. وقد كان .

لم يستطع يعقوب أن يحصل على البكورية عند الخروج من بطن أمه، إذ سبقه عيسو.

لم يستطع يعقوب أن يحصل على البكورية عند الخروج من بطن أمه، إذ سبقه عيسو. فتعقب عيسو ليأخذ منه هذه البكورية بعد خروجهما من بطن أمهما بسنوات طويلة .

نلاحظ أن البكورية قد تغيرت نعمها بعد يعقوب :

فبعده لم يعد البكر هو الذى يأتى من نسله المسيح . فبكر يعقوب هو رأوبين الذى لم يأت السيد المسيح من نسله ، إنما أتى من نسل يهوذا ولم يكن هو البكر . كما أن الكهنوت الهارونى جاء من نسل لاوى . ولم يكن لاوى هو البكر ...

لم يعد هناك داعٍ بعد يعقوب وعيسو للصراع على البكورية . فحتى بالنسبة إلى يهوذا الذى جاء السيد المسيح من نسله : جاء السيد المسيح من نسل داود . ولم يكن داود هو البكر بين أبناء يسى ، بل كان أصغرهم (١صم١٦: ١١) .

بقيت إذن البركة التى تصارع عليها يعقوب وعيسو ...

البركة

والبركة شئ مقدس . وينبغى أن يكون الحصول عليها بطريقة مقدسة ، وليس بأسلوب الخداع والغش ..!! ولكن لعل يعقوب يعتذر بأن هذا الغش قد دفعته إليه أمه ، وطاعة الأم أمر واجب! ولكننا نقول :

حدود طاعة الأم

ليس من الجائز إطاعة الأم بعصيان الله ...

نعم ، ليس من الجائز إطاعة الأم فى خطية ... فكل طاعة ينبغى أن تكون داخل طاعة الله .. فإن أمرته أمه بذلك اللون من الكذب والخداع ، ما كان يجب عليه أن يطيع.

أما الذى جعله يطيع أمه ، فهو شهوة قلبه داخله !

هو كان يشتهى أن يحصل على بركة أبيه . فلما دفعته أمه فى تلك الوسيلة من الغش والخداع ، تلقف نصيحتها كمعين له على تحقيق رغبته التى ظهرت من قبل فى موضوع البكورية . فاستغلاله لجوع أخيه وشراء البكورية منه بأكلة عدس ، لم يكن ذلك بسبب نصيحة من الأم ، بل كان عملاً تلقائياً لشهوته الداخلية .

كذلك كيف يطيع أمه بخداعه لأبيه ؟!

هنا ونتعرض لمشكلة عائلية كانت قائمة : وهى اختلاف إتجاه كل من الأب والأم .

كان اسحق قديساً ، وكانت رفقة قديسة . ولكن مشاعرهما تجاه الإبنين كانت فى طريقين عكسيين . كان اسحق يحب عيسو ، ورفقة تحب يعقوب . فهل تسير البركة تبعاً لمشاعر الأب ، أم مشاعر الأم . وما السبب ؟

كان عيسو صياداً ، ومن صيده كان يأتى إلى فم أبيه بما يطعمه . وهنا يقول الكتاب "أحب اسحق عيسو، لأن فى فمه صيداً" (تك٢٥: ٢٨) . وهكذا نجد اسحق يقول لعيسو "الآن خذ عدتك، جعبتك وقوسك. وأخرج إلى البرية ، وتصيد لى صيداً . وأصنع لى أطعمة كما أحب، وأئتنى بها لآكل، حتى تباركك نفسى قبل أن أموت " (تك٢٧: ٣، ٤).

أما يعقوب ، فكان ينطبق عليه المثل القائل إنه إبن أمه ...

كانت أمه تحبه .. لم يكن صياداً ، وإنما كان "يسكن الخيام" . يجلس إلى أمه ، ويتعلم منها طريقة الطبخ الجيد . وهو الذى قد طبخ العدس الأحمر الذى اشتهاه عيسو ، وبه باع له بكوريته (تك٢٥: ٢٩ - ٣٤) .

وكان يعقوب يحب أمه ، ويسمع مشورتها ، وهى التى تدبر له حياته . إن نصحته أن يخدع أباه ، يخدعه . وإن قالت له اهرب إلى خالك لابان ، وأقم عنده حتى يرتد سخط أخيك (تك٢٧: ٤٣، ٤٤) . فإنه يسمع نصيحتها ويطيعها . كما تقول له ، هكذا يفعل ...

ومن هنا بدأت حيلة ، تدبرها رفقة ، وينفذها يعقوب .

عيسو يخرج ليصيد صيداً يأتى به إلى أبيه . ورفقة تدبر كيف تصيد البركة وتأتى بها إلى يعقوب ...

وكل من رفقة واسحق ، كانت له دوافعه الروحية :

بالنسبة إلى اسحق ، كان من الطبيعى أن تعطى البركة لعيسو ، لأنه الإبن الأكبر . وبالنسبة إلى رفقة ، يجب أن تعطى البركة ليعقوب لأنه هكذا قال لها الرب " من أحشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير " (تك٢٥: ٢٣) .

إذن ينبغى أن تكون السيادة ليعقوب الصغير ، حسب إرادة الله وتدبيره ، وإعلانه من قبل ولادتهما .

عيب رفقة الأساسى ، إنها لم تنتظر الرب ...

ظنت أن الرب قد تأخر ، فلجأت إلى الطرق البشرية ، لتحقق بها الإرادة الإلهية !!

كان يجب أن تثق بالله وصدق مواعيده ، وتنتظر الرب . ولكنها وجدت أن الساعة الحرجة قد حلّت . واسحق أرسل عيسو ليحضر الصيد ويباركه . لذلك يجب أن تتصرف

بسرعة ...

هل كان الحلّ أن تذكرّ اسحق بكلمات الرب ، لكي يؤجل مباركته لعيسو ريثما يتضح الأمر بالأكثر ؟.. إنها لم تفعل هكذا ... وبدأ ذكاؤها البشرى يتصرف . فرأت أن ينتحل يعقوب شخصية عيسو ، ويأخذ البركة من أبيه بأسلوب الخداع .. وبخطية فيها كذب وغش !

خداعه لأبيه

ويعقوب لم يكن رافضاً للخطية ، إنما كان متخوفاً من نتائجها ، ومن صعوبتها ومن إنكشافها !

لم يقل "كيف أفعل هذا الشر العظيم وأخطئ ؟!" كما قال إبنه يوسف بعد عشرات السنوات (تك٣٩: ٩) . إنما قال "عيسو أخى رجل أشعر ، وأنا رجل أملس. ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون ، وأجلب على نفسى لعنة لا بركة " (تك٢٧: ١١، ١٢) . هنا لا يرفض الخطية كخطية . إنما يتخوف من صعوبة تنفيذها ، ومن خطورة إنكشافها . فلما شرحت له أمه الوسيلة التى لا تجعله ينكشف ، وافق ، ونفذ ، وتقدم ليخدع أباه ...

ما أصعب أن تأتى حرب الخطية من الخارج ، حين يكون القلب مشتاقاً إلى الخطية فى الداخل !!

وكما سمعت رفقة حديث اسحق مع عيسو ، وأخذت تتدبر الموقف ، كذلك سمع الشيطان حديثها مع يعقوب ، واقترب ليقدم لها الخطة المسبوكة ... "أخذت رفقة ثياب إبنها الأكبر التى كانت عندها فى البيت ، وألبستها ليعقوب . وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جدىّ الماعز " ...

وكانت تعرف بالخبرة نوع الطعام الذى يحبه اسحق ، فصنعته ، وأعطته ليعقوب ليقدمه لأبيه ...

وتقدم يعقوب إلى أبيه ، وبدأ الموقف المحرج .

أسئلة سألها اسحق ، تدل على شك فى قلبه : تعجب أولاً كيف أتى هكذا مسرعاً . وأجاب يعقوب أن الرب إلهك قد يسرّ لى !! وقال اسحق : تقدّم لأجسك يا ابنى . أأنت عيسو أم لا؟ وجسّه وقال " الصوت صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا عيسو" ولم يعرفه لأن اليدين كانتا مشعرتين . وعاد ليسأل : هل أنت هو إبنى عيسو؟ فأجاب : أنا هو ...

لحظات حرجة جداً . وخطايا كذب كثيرة وقع فيها يعقوب . ومع ذلك فإن الله ستر ، ولم يكشفه ...

ما أعجب حنان الرب فى تلك اللحظات !! بينما كان يعقوب يغش ويخدع ويكذب ، وينتحل شخصية أخرى . ولا يحترم أباه الضرير ... ومع ذلك نرى ستر الرب عليه وهو فى عمق الخطية ، فلم ينكشف على الرغم من كل شكوك أبيه التى تدل عليها اسئلته ... وعلى الرغم من كل حرص اسحق ، فى أنه يجسه ويشمه ، ويبدى ملاحظته أن الصوت صوت يعقوب!! ربما ما كان يتصور ذلك البار أن إبنه يخدعه . وأخيراً باركه :

نوعية البركة

"فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض . وكثرة حنطة وخمر .. " .

إنه كلام جميل لنتأمله .. فليعطك من ندى السماء من فوق .. ومن دسم الأرض من تحت .. الخير يأتيك من فوق ومن تحت .. من السماء ومن الأرض .. من الله ومن البشر .. من الروح ومن المادة أينما سرت تجد خيراً ...

تصوروا الإنسان الذى يسير فى طريق الروح ...

إن ندى السماء بالنسبة إليه هو عمل النعمة فيه ...

ندى السماء هو صلوات الملائكة وتشفعاتهم .. ندى السماء هو مواهب الروح القدس التى يسكبها الله عليه من السماء . إنها زيارات النعمة .. عمل الله ..

ومن دسم الأرض .. الأرض هى الطبيعة البشرية، لأن الله خلق الإنسان من دسم الأرض .. من تراب الأرض .. يعطيك الله من دسم الأرض ، أى أن عمل الروح الذى يعمل فيك، يستجيب له إنسانك الداخلى أيضاً .. يعطيك محبة للتوبة وقبولاً للنعمة .. استسلاماً لعمل الروح القدس .. يعطيك رغبة فى الخير وحباً فى الله .

الأرض لا تتمرد عليك .. والسماء تحنو عليك ..

وبالنسبة لقايين وآدم الأمر كان عكسياً ، فبالنسبة لقايين قال الله .. عندما تعمل فى الأرض لا تعود تعطيك قوتها .. الأرض تتمرد عليك .. وبالنسبة لآدم قال ملعونة الأرض بسببك ، الأرض تنبت لك شوكاً وحسكاً .

نحن نحتاج إلى بركة السماء وبركة الأرض .. نحتاج إلى عمل النعمة وإلى نقاوة طبيعتنا .. نحتاج إلى قوة من الروح القدس، وإلى عدم مقاومة من المادة ..

يعطيك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض .. يعطيك الله من الخيرات الروحية والمادية أيضاً .. كل ما تمتد إليه يدك ينجح .

الودعاء والمساكين بالروح، لهم ملكوت السموات، ويرثون الأرض .

مسكين الإنسان الذى لم يحصل على الأرض ولا على السماء .. تصوروا أنه عندما خرجت الكلمة من فم اسحق كانت كأنها أمر للسماء وأمر للأرض .. وضع أسحق يده على يعقوب وأمر صدر للسماء أن تنزل نداها عليه ، وأمر صدر للأرض أن تعطى دسمها لهذا الإنسان.. وحقاً كما قال السيد المسيح "وأعطيكم مفاتيح السماء والأرض".. هنا اسحق أخذ مفاتيح السماء والأرض ، يفتحها لتعطى نداها ودسمها وكلاهما فى طاعته.. أنه يمنح البركات كوكيل لله استؤمن على خيراته يوزعها كما يشاء .. إنها بركة عجيبة تعطى .

أما بالنسبة لعيسو فبلا دسم الأرض وبلا ندى السماء .. بالنسبة إليه عملية إغلاق ، لقد أعطى الله اسحق المفاتيح يفتح بها ويغلق، فى السماء والأرض .. إنها بركة الأبوة .. بركة وكيل الله الذى استؤمن على السماء والأرض .. ليعطك الله ندى السماء ودسم الأرض وكثرة حنطة وخمر ...

إن الحنطة والخمر يرمزان إلى سر الإفخارستيا فى العهد الجديد .

وهكذا فإنه أعطاه خيرات العهد القديم وما فيها من رموز للعهد الجديد فى الحنطة والخمر اللذين يشيران أيضاً إلى كهنوت العهد الجديد .. وأبونا اسحق عندما تحدث عن هذه البركة فى حديثه مع عيسو ، قال عن يعقوب " وعضدته بحنطة وخمر " (تك٢٧: ٣٧) .

وقال أبونا اسحق فى مباركته يعقوب أيضاً :

" ليستعبد لك شعوب ، ولتسجد لك قبائل " .

" كن سيداً لأخوتك ، وليسجد لك بنو أمك " .

إن الإنسان الذى يسير فى طريق الله يعطيه الله موهبة السيادة .. الله يعطى من سلطانه للناس .. عندما خلق آدم جعله سيداً على كل الكائنات الموجودة طيور السماء وحيوانات الأرض وسمك البحر .. جعله سيداً على الأرض .. وعندما أخطأ الإنسان بدأت السيادة تتزعزع ، وبدأت الكائنات تتمرد عليه .. الحية تلدغ عقبه ، والأرض تنبت شوكاً وحسكاً .. لقد تمردت الأرض والنبات .. السيادة ضاعت .. المرأة قال لها إن

الرجل يسود عليها .

فى يعقوب .. بدأت البركة تعود ثانية .. تستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل .. كن سيداً لأخوتك، وليسجد لك بنو أمك " .

عجيب أن يسمح الله لإنسان أن يسجد له الناس .

يسجدون لوكيل الله على الأرض ، للشخص الذى يمثل الله ، أو يكون مسيحاً له . إنها موهبة السيادة أو كرامة يسبغها الله على أولاده . وأيضاً يقول له :

"ليكن لاعنوك ملعونين ، ومباركوك مباركين " .

من يلعنك ، ألعنه أنا . ومن يباركك أباركه . أنت سوف لا تدافع عن نفسك ، أنا سأدافع عنك .. أنت سوف لا ترد الإساءة بالإساءة ، لكننى أنا من السماء سأدافع عنك .. الذى يلعنك، ترتد اللعنة إلى نفسه .. والذى يباركك، يأخذ البركة لنفسه ويصير مباركاً .

حماية من الله عجيبة لكل واحد من أولاده ... يقف بجواره ، يدافع عنه ويعمل من أجله كل شئ حتى لو كان صامتاً .. يقاتل عنكم وأنتم تصمتون (خر١٤: ١٤) .

إنها عبارات معزية سمعها يعقوب الضعيف المسكين الخائف من عيسو الجبار الصياد.. كان يعقوب راكعاً عند قدمى أبيه ، وكانت السماء فاتحة أبوابها والنعم تنزل على رأسه أمينة صادقة من فم أبيه ومن عند الله نفسه .

يعقوب أبو الآباء ومتاعب بعد البركة

البركة

استطاع يعقوب أن يحصل على بركة أبيه . وكانت بركة الآباء كنزاً عظيماً يسعى إليه الأبناء ...

البركة فى تاريخ البشرية صدرت من الله مباشرة ، ومن الله وحده . كما بارك الله آدم وحواء (تك١: ٢٨) . وكما بارك نوحاً وبنيه (تك٩: ١) . وكما بارك أيضاً أبانا ابراهيم (تك١٢) . وهو أول إنسان قال له الله " وتكون بركة " (تك١٢: ٢) .

وهكذا صار الآباء مصدراً للبركة ...

لم يكونوا بالنسبة إلى أبنائهم مجرد آباء جسديين ، بل كانوا لهم آباء روحيين أيضاً . فى ذلك الزمان كان الكهنوت للأب رئيس العائلة . وهكذا كان أبونا نوح يقدم محرقات للرب (تك٨: ٢٠) . وأبونا ابراهيم كان كذلك : بنى مذابح ودعا باسم الرب (تك١٢: ٧، ٨) . واسحق أيضاً بنى مذبحاً ودعا باسم الرب (تك٢٦: ٢٥) .

كان هؤلاء الآباء كهنة يقدمون على المذابح محرقات . وكانت فى أيديهم البركة واللعنة .

من يباركونه يصبح مباركاً . ومن يلعنونه يصبح ملعوناً ، كما فعل أبونا نوح (تك٩: ٢٥- ٢٧) لعن كنعان فصار كذلك .

لم يكن اسحق إذن مجرد أب جسدى لعيسو ويعقوب . بل كان أيضاً أباً روحياً لهما ، كاهناً له سلطان، ويمكن أن يمنح البركة . كان وكيلاً لله على الأرض . وكل منهما كان بكل قوته يسعى لنوال بركته ...

الخدعـــة

يعقوب سعى إلى البركة بطريقة الغش والخداع .

لقد أطاع نصيحة أمه . وفى الواقع لقد أطاع شـهوات قلبه التى كانت تتفق مع هذه النصيحة . والعجيب أن أمه لم تقدم له حيلتهـا كنصحية ، بل كـأمر . وهكذا قالت لـه : "الآن يا ابنى، اسمع لقولى فى ما أنا آمرك به" (تك٢٧: ٨) . ويعقوب لم يرفض . لم يقل لها فى حزم "لا أقدر أن أخدع أبى ، محتقراً عمى بصره " . بل إنـه كـان يخشـى فقط إنكشاف الخدعة . ولم يكن يعقوب جريئاً وشجاعاً مثل سليمان الذى رفض طلب أمه فـى أن تعطى أبيشج الشونمية إمرأة أبيه زوجة لأدونيا أخيه ، بل أمر بقتل أدونيا الـذى توسطت له أمه، عقاباً له على جرأته فى أن يطلب إمرأة أبيه زوجة لـه (١مل٢: ١٧-٢٥) . وهكذا لم يطاوع سليمان أمه ، محترماً أباه حتى بعد موته .

أما يعقوب فتقدم ليخدع أباه ، مرتكباً خطايا عديدة ...

قال له " أنا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلمتنى . قم أجلس وكل من صيدى ، لكى تباركنى " (تك٢٧: ١٩) . كم كذبة كذبها يعقوب فى هذه العبـارة ؟ لا هو عيسو البكر ، ولا أبوه كلّمه عن صنع أطعمة له ، ولا هو اصطاد شيئاً ..! ولما تعجب أبوه من السرعة فى الصيد وإعداد الطعام ، أجابه يعقوب "الرب إلهك يسرّ لى" !!

كل هذا أدخل الشك فى نفس اسحق .

وبخاصة لأن "الصوت صوت يعقوب " . فقال له "تقدم لأجسك يا ابنى. أأنت هو إبنـى عيسو أم لا" . وعاد اسحق يسأله مرة أخرى " هل أنت هو إبنى عيسو؟" فقال " أنا هو" (تك٢٧: ٢١، ٢٤) . ولم يكتف اسحق بهذا ، بل أمره أن يتقدم ، وشم رائحة ثيابه .. إنها ثياب عيسو التى ألبستها رفقة لإبنها يعقوب .. إن رفقة كانت ذكية . فلم تطبخ الطعام فقط لاسحق ، بل طبخت العملية كلها . كانت رواية :ألّفها الشيطان ، وأخرجتها رفقة ، ومثلها يعقوب ، وخدع بها أباه .

هل كان قلبه مضطرباً وخائفاً خلال ذلك ؟

خلال أسئلة أبيه المتكررة المرتابة ، وهو يجسّه ويشمه ، ويقول له : هل أنت هو؟ .. عجباً إن هذا الضعيف كانت له وقتذاك قوة ، أمكنه بها أن يصمد وأن يجيب، وأن يحتمل شك أبيه . بل أن يقبّل أباه فيما كان يخدعه (تك٢٧: ٢٦، ٢٧) .

والعجيب أن البعض دافع عن يعقوب في خدعته !!

فقال إنه لما اشترى البكورية من عيسو ، اشترى شخصية عيسو !! وهذا رأى غير مقبول من نواح عديدة : فيعقوب كان يعرف أنه يخدع أباه ، بدليل أنه خاف من ذلك أولاً وقال لأمه "أجلب لنفسي لعنة لا بركة " (تك٢٧: ١٢) . وبدليل أنه لبس ملابس عيسو . كما أن أمه "ألبسته في يديه وملاسة عنقه جلود جدي الماعز " . وأيضاً كذبه على أبيه في قوله " قم أجلس وكل من صيدي" . وقوله من جهة السرعة " الرب إلهك يسّر لي!" ولو كان يعني مجرد شراء البكورية ، لكان يقول لأبيه : أنا بكرك . وليس أنا بكرك عيسو.. كما أنه كذب على أبيه مرة أخرى ، حينما سأله أبوه "هل أنت هو إبني عيسو؟" فقال : أنا هو . وهنا السؤال عن الشخص وليس عن البكورية ...

إنكشاف الخدعة

الخلاصة أنه نال البركة بالخدعة ، وبقي أن يواجه نتائجها . وأولى النتائج هو إنكشاف الخدعة بعودة عيسو ...

ولاشك أن يعقوب ورفقة كانا يعلمان أن عيسو سيعود من صيده ، ويقدم طعاماً لأبيه ويطلب بركته ، وتنكشف اللعبة .. ولكن لابد أنهما كانا يعلمان أيضاً أن البركة حينما تُعطي، لا يمكن أن تُسحب "لأن هبات الله ودعوته ، هي بلا ندامة " (رو١١: ٢٩) ... حتى " إن كنا غير أمناء ، فهو يبقى أميناً " (٢تي٢: ١٣) . وهو قد قال منذ الحبل بيعقوب وعيسو : "وكبير يستعبد لصغير " (تك٢٥: ٢٣) . فلابد أن هذا يتم ...

كانت إرادة الله تنفذ ، حتى من خلال خطأ يعقوب !

وحتى من خلال حيلة رفقة واللجوء إلى طرق بشرية ... إن الله يستطيع أن يجعل كل شئ يؤول إلى إرادته المقدسة . حتى الأخطاء يحوّل نتيجتها إلى خير !

لقد أخطأ يهوذا الأسخريوطي وباع سيده بثلاثين من الفضة . وأخطأ مجمع السنهدريم، وحكم على المسيح ظلماً ، واستخدم شهود زور (مت٢٦: ٦٠) . وأخطأ بيلاطس أيضاً في أن سلّمه لليهود ليصلبوه .. ومع ذلك فقد آلت كل هذه الأخطاء إلى تنفيذ إرادة الله في قضية الفداء ! آلت من جهة نتيجتها . أما سوء فعل أولئك فهو مدان ...

عاد عيسو ، وصنع أطعمة لأبيه ، وطلب بركته . فسأله اسحق من أنت؟ فأجاب "أنا بكرك عيسو" . وهنا يقول الكتاب :

فارتعد اسحق إرتعاداً عظيماً جداً " (تك٢٧: ٣٣) .

اكتشف أنه وقع فى خدعة ، وأن يعقوب "أتى بمكر وأخذ البركة " ... ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا؟! هل من المعقول أن يسمح الله بأن تعطى البركة لمن لا يستحقها؟! وهل ستثبت البركة التى أخذها يعقوب ؟ طبعاً سوف تثبت . ولكن كيف ؟!

وهنا بدأ ذهن اسحق يجول فى أعماق بعيدة ... ويقيناً أنه تذكر فى تلك اللحظات الكلام الذى قاله الله لرفقة فى وقت حبلها " فى بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب . وكبير يستعبد لصغير " (تك٢٥: ٢٣) .

كان قد نسى هذه النبوءة فى شيخوخته .. وعاد ليتذكرها الآن .. إذن فقد كان على وشك أن يعطى البركة لعيسو . ولكن الله صحح له هذا الخطأ ، ولم يسمح لاسحق أن يقع فيه . فالبركة هى ليعقوب . هنا وقال اسحق " نعم ، ويكون مباركاً " (تك٢٧: ٣٣) .

وهنا أيضاً نضع أمامنا حقيقة هامة وهى :

أخطاء عيسو

إن عيسو لم يكن أميناً لنفسه ، ولا لأخيه ، ولا لله :

لم يكن أميناً لنفسه ، لأنه باع بكوريته .. وباعها بثمن رخيص ، بأكلة عدس (تك٢٥: ٣٢) . وهكذا باع الروحيات، وأخذ بدلاً منها الماديات "واحتقر البكورية" !

وعندما باع البكورية ، لم يكن أميناً لله .

ذلك لأن البكورية وقتذاك كانت تحمل فى بركاتها الكهنوت ، أى خدمة الله ومذبحه . بل كانت تحمل شيئاً أهم ، وهو أنه من نسل هذا البكر سيأتى المسيح ، وبنسله تتبارك جميع قبائل الأرض ... فكيف باع كل هذا بأكلة عدس ؟!

ولم يكن عيسو أميناً لأخيه أيضاً ...

إذ كيف ينقض اتفاقاته معه . كيف بعد أن باع البكورية ، يأتى إلى أبيه ويقول له "أنا بكرك عيسو" (تك٢٧: ٣٢) ؟! ويطالب ببركة هذه البكورية ! أما كان الأجدر أن يقول لأبيه : لست أستحق هذه البكورية ، لأنى بعتها .

وهو لم يبع البكورية فقط ، وإنما حلف لأخيه على ذلك (تك٢٥: ٣٣) . أى أشهد الله على ذلك . لذلك فهو يطالب بحق ليس له ...

فلما سمع أن أباه بارك أخاه يعقوب يقول الكتاب :

إن عيسو صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً ، وبكى ...

وقال : أما أبقيت لى بركة ؟! " ألك بركة واحدة فقط يا أبى . باركنى أنا أيضاً يا أبى".. ورفع صوته وبكى (تك٢٧: ٣٤، ٣٨) .

ويجيبه أبوه : ماذا أصنع لك يا إبنى ؟! جاء أخوك وأخذ البركة . قد جعلته سيداً لك ، ودفعت إليه جميع أخوته عبيداً ، وعضدته بحنطة وخمر (تك٢٧: ٣٧) ...

ولم يكن اسحق قاسياً أمام دموع إبنه عيسو ...

إنما لقد أخطأ عيسو فهم البركة والبكورية .

أهم ما فيها أن يأتى المسيح من نسل من ينال هذه البركة . فمادامت البركة قد أعطيت ليعقوب ، وصار له أن يأتى المسيح من نسله ، فلا يمكن أن يأتى إذن من نسل عيسو .. ما معنى إذن : ألك بركة واحدة فقط يا أبى ؟! هل من المعقول أن يعطى نفس البركة لعيسو ، فيأتى المسيح من نسل يعقوب ومن نسل عيسو؟! وهذا محال ..

لم يكن تفكير عيسو هنا تفكيراً روحياً . وكان الأجدر به أن يذهب إلى أخيه يعقوب ويسجد أمامه ، ويطلب بركته ، وليس بركة البكورية . ولكنه صرخ صرخة مرّة وبكى ، حيث لا ينفع البكاء ...

وصدق فى عيسو ، ما قاله عنه القديس بولس الرسول :

قال إنه " لما أراد أن يرث البركة رُفض ، إذ لم يجد للتوبة مكاناً ، مع أنه طلبها بدموع" (عب١٢: ١٧) .

لقد جاء بعد فوات الفرصة ، بعد أن أغلق الباب ، مثل الخمس العذارى الجاهلات ، اللاتى قلن "يا ربنا يا ربنا، افتح لنا " فأجابهن الرب " الحق أقول لكن إنى لا أعرفكن " (مت٢٥: ١٠- ١٢) .

لم يكن بكاء عيسو بكاء توبة . إنما كان بكاء حسرة وغيظ وحقد .

بكاء من فقد شيئاً لا يمكن أن يرجع . بكاء ليس فيه تذلل ولا انسحاق .. بل يقول الكتاب عن هذا الباكى " فحقد عيسو على يعقوب ، من أجل البركة التى باركه بها أبوه . وقال عيسو فى قلبه : قربت أيام مناحة أبى . فأقتل يعقوب أخى" (تك٢٧: ٤١) . وطبيعى أن الذى يحقد على أخيه ، ويفكر فى قتله ، لا يمكن أن يكون إنساناً تائباً .

لقد بكى وطلب من أبيه بركة . فقال له أبوه "هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك ، وبلا ندى السماء من فوق . وبسيفك تعيش ، ولأخيك تستعبد ولكن يكون حينما تجمح ،

أنك تكسر نيره عن عنقك " (تك٢٧: ٣٩، ٤٠) . وكأن مشاعر عيسو الحاقد تقول :

بسيفي أعيش ؟ ليكن . ولكن بسيفي لن أجعله يعيش .. أقوم وأقتل يعقوب أخي ...

إن كانت النتيجة الأولى في خداع يعقوب لأبيه ، هي إنكشاف الخدعة بعودة عيسو من صيده ، فإن النتيجة الثانية كانت عزم عيسو على قتله . ونتيجة لذلك إن رفقة نصحته بالهروب من أخيه قائلة له : "الآن يا ابني، اسمع لقولي. وقم أهرب إلى أخي لابان، إلى حاران ... حتى يرتد سخط أخيك عنك ، وينسى ما صنعت به .. لماذا أعدم إثنيكما في يوم واحد؟" (تك٢٧: ٤٢- ٤٥) .

إلى بيت لابان

وكانت رفقة إمرأة ذكية . فأقنعت اسحق بذلك ...

أقنعته بذهاب يعقوب ليقيم عند أخيها لابان في حاران . فكيف فعلت ذلك ؟

كان عيسو قد اتخذ لنفسه زوجتين من بنات الحيثيين " فكانتا مرارة نفس لاسحق ورفقة" (تك ٢٦: ٣٤، ٣٥) . فضربت رفقة على هذا الوتر ، وقالت لزوجها اسحق "مللت حياتي بسبب بنات حث . إن كان يعقوب يأخذ زوجة من بنات حث، مثل هؤلاء من بنات الأرض ، فلماذا لي حياة ؟!" (تك٢٧: ٤٦).

ومال اسحق إلى كلام رفقة ، ودعا يعقوب وباركه ، وقال له نفس النصيحة : قم اذهب إلى فدان آرام ، إلى بيت بتوئيل أبي أمك ، وخذ لنفسك زوجة من هناك ، من بنات لابان أخي أمك .. لا تأخذ لك زوجة من بنات كنعان " (تك٢٨: ١، ٢) .

وهنا نرى اسحق يبارك يعقوب بركة ثانية ، من قلبه ، وليس كالأولى التي كانت بالخدعة ...

لم يلمه على خدعته ، ولم يعاقبه على أخذه البركة بالمكر ، لأنه تذكر الوعد الإلهي . بل دعاه وباركه ... وقال له "الله القدير يباركك، ويجعلك مثمراً" .. ويعطيك بركة ابراهيم لك ولنسلك.." (تك٢٨: ١، ٣، ٤) .

ومضى يعقوب هارباً من وجه أخيه ، بعيداً عن بيت أبيه وعن حنان أمه . فماذا حدث له ؟

يعقوب أبو الآباء
هارب وخائف، ولكن الله معه

حقد عيسو وجهله

خرج يعقوب من بيت أبيه ، هارباً من وجه أخيه عيسو ، الذى عزم على قتله . وقد أوصله الحقد إلى هذا المستوى "أقوم وأقتل يعقوب أخى" .

عجيب هو حقد عيسو ، وعجيب أيضاً جهله ...

إن كان يعقوب قد أخذ البركة ، فكيف يمكن لعيسو أن يتحدى هذه البركة ويمنع نفاذها؟! البركة التى تقول "كن سيداً لأخوتك، وليسجد لك بنو أمك . ليستعبد لك شعوب، ولتسجد لك قبائل " (تك٢٧: ٢٩) . هل يمنع عيسو إتمام هذه النبوة ؟! وهل يمنع إتمام القول الإلهى عنه وعن أخيه " وكبير يستعبد لصغير" (تك٢٥: ٢٣) .

كان عيسو يتحدى التدبير الإلهى ، بعكس أبيه .

لقد كان فى نية أبيه أن يبارك عيسو . ولكنه استسلم لمشيئة الله ، لما تذكر وعده . وعاد اسحق فبارك يعقوب ، وقال "نعم ويكون مباركاً" (تك٢٧: ٣٣) أما عيسو، فقد تمرد على مشيئة الله . ودلّ بذلك على جهله أيضاً . لأنه إن كان من ضمن البركة التى أخذها يعقوب ، أن يأتى من نسله المسيح ، فكيف يستطيع عيسو أن يقتله قبل أن ينجب النسل الذى منه يأتى المسيح ؟!

بل كيف يقف عيسو ضد بركة أخرى قالها أبوه اسحق ليعقوب "الله القدير يباركك ويجعلك مثمراً ، ويكثّرك فتكون جمهوراً من الشعوب " (تك٢٨: ٣) . فهل يموت يعقوب، قبل أن يثمر ؟! ولكن على الرغم من جهالة عيسو وتمرده على التدبير الإلهى ، هرب يعقوب من وجهه ...

سار فى البرية وحيداً خائفاً ، **ينتظر وعود الرب .**

وهو باستمرار كان يخاف من عيسو ، رجل الصيد والنبال ، الذى كان أقوى منه جسدياً حتى وهما فى بطن أمهما : ركنه عيسو جانباً ، وخرج قبله "أحمر كله كفروة شعر" (تك٢٥: ٢٥) .

وتزاحم الإثنان أيضاً حول البكورية والبركة . فلما كانت من نصيب عيسو ، دخلت مشاعر الإنتقام فى قلب عيسو ، كما دخل الخوف من الإنتقام فى قلب يعقوب . وهرب وهو لا يدرى هل ستنتصر بركة اسحق أم حقد عيسو .. !

وقت الرحمة لا العقوبة

وعلى الرغم من أخطاء يعقوب فى حصوله على البركة ، إلا أن الله لم يعاقبه فى وقتها ...

ليس من المعقول أن يعاقبه الله وهو فى هربه وخوفه . يكفيه حالياً ما هو فيه . العقوبة سوف تحل عليه فيما بعد . أما الآن فهو فى حاجة إلى عناية الله ورعايته ، وليس الوقت وقت عدل الله وعقوبته . إن الله يكون دائماً إلى جوار الضعفاء المحتاجين إليه . لعله باهتمامه بهم فى ضيقتهم ، يمكن أن يجذبهم إليه .. صدق داود النبى حينما قال :

" أقع فى يد الله ، ولا أقع فى يد إنسان ، لأن مراحم الله واسعة " (٢صم٢٤: ١٤).

فليقع يعقوب إذن فى يد الله ، يعاقبه كما يشاء ، ومتى يشاء . ولا يقع فى يد أخيه عيسو ... وهكذا سار يعقوب فى البرية وحيداً وخائفاً ، وبلا أية معونة .. بلا رعاية الأب، ولا حنان الأم ، وليس أمامه مجال لاستخدام ذكائه البشرى .

رآه الله فى خوفه وهربه . وكأن الله يقول :

لا أترك يعقوب إبنى وحده . لا أتركه معذباً وقلقاً ...

حقاً أنه تسبب فى هذا الهرب الذى جلبه على نفسه .. ولكن الله لا يتركه ليقاسى بسبب أعماله .. الله "الذى لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا " (مز١٠٣: ١٠) . ودبّر الله الوقت الذى يعمل فيه .

هوذا يعقوب الآن فى البرية ، فى وحشة النهار وظلمة الليل ، وخوف الجبل وما فيه من وحوش ودبيب وحشرات . يضاف إلى ذلك خوفه من انتقام أخيه . ولعله يفكر : أين إذن البركة التى نالها : " ندى السماء ، ودسم الأرض" (تك٢٧: ٨) !!

حقاً إن البركة ليس معناها الطريق الواسع .. !

لقد حصل داود النبى على بركة المسحة المقدسة التى أخذها على يد صموئيل النبــى ، وحلّ عليه روح الرب (١صم١٦: ١٣). وعلى الرغم من ذلك حلّت ضيقــات كثيرة علــى داود ، واضطهادات ومطاردات من شـاول الملـك ... وفـى الوقت المناسب ، نـال داود بركة المسحة المقدسة . إذن على يعقوب أن ينتظر الرب ، الذى يعمل فى الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة لتدبيره الإلهى .

كان على يعقوب أن يجتاز مرحلة فطام .

فطام عن كل معونة بشرية . وأولها الفطام من حنان أمه وإرشادها.. هـذه التـى قـالت له أكثر من مرة " الآن يا ابنى إسمع لقولـى " (تـك٢٧: ٨، ١٣) .. قـالت لـه ذلـك عندمـا نصحته أن يخدع أباه . وأيضاً حينما نصحته أن يهـرب ويقيـم عنـد خالـه لابـان (تـك٢٧: ٤٣) ..

وكان عليه أيضاً أن يفطم ذاته عن حيله البشرية . ويكون فى موقف يشعر فيــه أنــه لا حلّ أمامه ولا وسيلة . وحينئذ يتدخل الله لينقذه من ضيقته ...

وفى الضيقة لمس يعقوب عملياً يد الله فى حياته .

لقــاؤه مـــع اللـــــه

كان من قبل لا يعرف عن الله ، إلا أنه إله أبيه اسحق وإله جده ابراهيم ، هذين اللذين كانا يقدمان له الذبائح . وحتى حينما كلمه الله ، كلمه بهذه الصفة قائلاً له " أنا الـرب إلـه ابراهيم أبيك وإله اسحق " (تك٢٨: ١٣) . وهكذا بدأ الله يكوّن علاقة شخصية معه ..

وكان الله هو البادئ بهذه العلاقة . فكيف حدث ذلك ؟ حدث ذلـك فـى البريـة ، حينمـا تعب يعقوب من السير ، وكانت الشمس قد غابت . " وصـادف مكانـاً وبـات هنـاك " . لـم يكن هناك فراش ، ولا وسـادة يسـند عليهـا رأسـه . " فـأخذ حجـراً مـن حجـارة المكـان ، ووضعه تحت رأسه . واضطجع فى ذلك المكان " (تك٢٨: ١٠، ١١) .

وهنا بدأ الله يعمل . بدأ يكوّن علاقة مع يعقوب ...

لم يحتمل أن يراه هكذا ملقى على الأرض ومتوسداً حجراً .. ربما يعقـوب كـان يظـن وقتذاك أنه وحده فى الجبل . فاراد الله أن يثبت له أنه ليس وحده . وأنــه وإن كـان راقـداً على الأرض ، فهناك ما يمكن أن يصل بين الأرض والسماء .. وكيف ذلك ؟

إذا بيعقوب فى نومه يرى حلماً عجيباً ...

سلم يعقوب

رأى سلماً منصوبة على الأرض ، ورأسها يمس السماء . وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها . وهوذا الرب واقف عليها يخاطبه . يعرّفه بنفسه ويباركه ..

وكان هذا هو اللقاء الأول بينه وبين الله ، حيث أعلن له الله ذاته ، وأعقبت ذلك لقاءات أخرى ...

وبعد أن كان يعقوب مؤمناً بالوراثة .. أصبح مؤمناً بالعشرة والخبرة .

كان مؤمناً ، لأنه ابن اسحق المؤمن . إلهه هو إله اسحق . أما الآن فقد دخل فى طور آخر من الإيمان . يتحدث فيه الله إليه ، ويتحدث هو مع الله . وبعد أن كان قد أخذ البركة من أبيه اسحق ، هوذا الآن يسمعها من فم الله ذاته ، الذى قال له " يكون نسلك كتراب الأرض ، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً .. ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض" (تك٢٨: ١٤). بل إن الله يعطيه أيضاً وعداً آخر بالحفظ ، فيقول له " وها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب، وأردك إلى هذه الأرض .." (تك٢٨: ١٥) . فما هذا كله:

إنه الآن أمام الله ، وملائكته ، وسمائه ...

ثلاثة تمثل حياته الروحية الجديدة . ومن قبل كان يتعامل مع ثلاثة هم أب وأم وأخ. لقد دخل تغيير إذن فى حياته . فصل جديد قد بدأ ..

وقد ترك هذا المنظر "السلم والسماء والملائكة " أثراً كبيراً فى نفس يعقوب . وأعمق منه بلاشك حديث الله معه . فلما استيقظ من نومه ، قال : ما أرهب هذا المكان . ما هذا إلا بيت الله ، وهذا باب السماء " (تك٢٨: ١٧) .

ولأول مرة ، يرد فى الكتاب المقدس هذا التعبير "بيت الله" . وقد تسمّى به ذلك المكان، فصار إسمه "بيت إيل" أى بيت الله ...

ولأول مرة أيضاً نقرأ فى الكتاب عن ملائكة ظهروا لإنسان . وتكرر هذا فى حياة يعقوب .

قرأنا من قبل إن الرب ظهر مع ملاكين لأبينا ابراهيم، وعن ذهاب الملاكين إلى سادوم وانقاذهما للوط واسرته (تك١٨، ١٩) . وقرأنا عن ملاك منع أبينا ابراهيم من ذبح إبنه اسحق (تك٢٢: ١١، ١٢) . ولكننا هنا نقرأ عن ملائكة صاعدين ونازلين ...

كان يعقوب أول إنسان رأى مجموعة من الملائكة . ربما أن حالته النفسية القلقة ،

كان فيها يحتاج إلى الشعور بأن له أسرة كبيرة من فوق ينتقل بها إلى عالم سمائى ...

كذلك وهو ذاهب فى طريقه خائفاً من ملاقاة عيسو ، لاقاه عدد كبير من الملائكة قال عنهم : " هذا جيش الله " (تك٣٢: ١، ٢) .. فى كل رحلة يعقوب ذهاباً وإياباً ، كان محتاجاً إلى عزاء . وكان فى ظهور الملائكة عزاء له ...

وأيضاً كان له عزاء فى السلّم التى رآها ...

كانت السلّم بين السماء والأرض ، توحى بأن السماء لا تقطع صلتها بالأرض، مهما أخرجت الأرض شوكاً وحسكاً ...! كانت ترمز إلى المصالحة ، وعودة الحب . بل ترمز أيضاً إلى السيد المسيح الذى قام بهذه المصالحة ، وأعلن للأرض حب السماء . وكانت ترمز كذلك إلى أمنا العذراء التى ولدت للعالم هذا المخلص . لهذا ندعو العذراء فى صلوات التسبحة "سلّم يعقوب" ...

على أن يعقوب فيما رأى كان له عزاء أعظم من السلّم ومن الملائكة ومن السماء : إنه الله ...

كان الله واقفاً على السلم يتحدث إليه (تك٢٨: ١٣) .

حقاً إن الله عجيب فى ظهوره ليعقوب على الرغم من خداعه لأبيه، واستغلاله لجوع أخيه . وعلى الرغم من كذبه وحيله . وعجيب هو الرب بالأكثر فى كل وعوده ليعقوب، ومباركته له ولنسله . وهكذا أكدّ الله ليعقوب البركة التى سمعها مرتين من أبيه اسحق (تك٢٧: ٢٧) (تك٢٨: ١). فيكون قد نال حتى تلك اللحظة البركة ثلاث مرات ...

حقاً إن بركات الله بلا حساب ، وننالها بلا استحقاق !

" لأنه ليس بكيل يعطى الله" (يو٣: ٣٤) . وإن كال لنا فإنما يعطى فى أحضاننا "كيلاً جيداً ، ملبداً ، مهزوزاً فائضاً .. " (لو٦: ٣٨) . وهو فى عطائه ، ينظر دوماً إلى احتياجنا، وليس إلى استحقاقنا .. وهكذا فعل مع يعقوب الخائف الهارب . لقد أعطاه الله بركة ووعوداً ، وليس عقوبة وتأديباً ...

وكان لهذا كله تأثيره فى قلب يعقوب ، فقال :

"حقاً إن الله فى هذا المكان ، وأنا لم أعلم " (تك٢٨: ١٦) .

قال الله له " أنا معك حيثما تذهب " . ولكنه لم يكن يعلم أن الله معه . وما أكثر ما يكون الله معنا ، ونحن لا نعلم ..! مثلما حدث لتلميذى عمواس فى لقاء الرب لهما (لو٢٤: ١٥، ١٦) . وكثيراً ما يكون الله معنا ، ولكن الضيقات لا تتركنا نشعر بوجوده .

كما قال جدعون لملاك الرب "إذا كان الرب معنا، فلماذا كل هذه ؟! وأين هي عجائبه التى أخبرنا بها آباؤنا !" (قض٦: ١٣) ... هكذا كان يعقوب لا يعلم بوجود الرب معه..!.

كان هذا أول ظهور إلهى له ، وكان ما سمعه من الرب أول كلمات من الله تمس أذنيه .

لقد شعر كيف يكون الرب قريباً فى وقت الضيقة ... لذلك مباركة هى الضيقات حينما تقربنا إلى الله . ولهذا فإن الله يسمح بالضيقات ، لكى ندعوه فينقذنا . على أنه هنا لم يحدث أن يعقوب دعاه . إنما لاشك أن احتياج يعقوب كان يصرخ إلى الله دون أن يتكلم.. كما قال الرب لموسى "إنى رأيت مذلة شعبى .. علمت أوجاعهم . فنزلت لأنقذهم " (خر٣: ٧، ٨) . مع أنهم لم يصرخوا إليه ، بل صرخوا بسبب مسخريهم ..

"الله هنا ، وأنا لم أكن أعلم" . وكيف عرفت إذن ؟ بالضيقة .

لا تحزن يا يعقوب إذا فكر عيسو فى أن يقتلك .. ثق أن حياتك في يد الله ، وليست فى يد عيسو . إذن لا تركّز فكرك فى أخطار تهددك من أخيك، إنما فكّر فى الله . فكّر فى باب السماء المفتوح .. ولتكن كلمة الله فى أذنك " ها أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب". وماذا عن عيسو وقوته وتهديده، والقتل والموت ؟ لا تفكر فى كل هذا ..

لقد اطمأن يعقوب لما سمع وعود الرب.

ونذر يعقوب نذراً إن كان الرب معه وحفظه ...

كان وعد الله له فى حلم . وهو لا يريد أن يكون حفظ الله هو مجرد أحلام يحلمها ووعود يسمعها في حلم ... إنما متى تحققت " يكون الرب لى إلهاً .. وكل ما تعطينى فإنى أعشره لك " . ابراهيم جده قدّم العشور مرة لملكى صادق (تك١٤: ٢٠) . أما يعقوب حفيده فيقول للرب :

" كل ما تعطينى ، فإنى أعشره لك " (تك٢٨: ٢٢) .

ليكن هذا درساً لكل إنسان ... فلا يدفع العشور من مرتبه فقط ، وإنما من كل ما يصل إلى يده ، عملاً بقول إبينا يعقوب : كل ما تعطينى فإنى أعشره لك ...

وصية العشور أخذها - بالتقليد - من جده ابراهيم ، وطبقها على كل شئ ، كتعبير فى العرفان بالجميل للرب .

ولكى لا ينسى ظهور الرب له فى ذلك المكان ، دشنه بيتاً للرب .

يعقوب أبو الآباء
وعهد مع الله في بيت إيل

دخل يعقوب فى عهد مع الله ... وفى الكتاب المقدس ما أكثر العهود التى نراها بين الله والإنسان .

وهنا نرى العهد يقول فيه الله ليعقوب "نسلك يكون كتراب الأرض . ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض . وها أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب، وأردك إلى هذه الأرض " (تك٢٨: ١٣ – ١٥) .

ومن جانب يعقوب نذر نذراً ، بشروط ...

وفى هذا يسجل الكتاب " ونذر يعقوب نذراً قائلاً : إن كان الله معى ، وحفظنى فى هذا الطريق الذى أنا سائر فيه ، وأعطانى خبزاً لآكل وثياباً لألبس ، ورجعت بسلام إلى بيت أبى ، يكون الرب لى إلهاً ، وهذا الحجر الذى أقمته يكون بيت الله ، وكل ما تعطينى فإنى أعشره لك " (تك٢٨: ٢٠– ٢٢) .

الله قدّم هنا وعوداً بلا شروط ، ويعقوب قدم نذراً لله بشروط .

ولعل سبب شروط يعقوب ، أنه لم يكن قد دخل فى عمق الإيمان بعد . إنه الآن فى بدء علاقته الشخصية مع الله ، ويريد أن يتحقق من وعود الله له !!

هوذا الله يقول له " ها أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب" . وهو يقول فى شروطه "إن كان الله معى، وحفظنى فى الطريق الذى أنا سائر فيه " .. والله يقول له "وأردك إلى هذه الأرض" . وهو يقول : "إن رجعت بسلام إلى بيت أبى" ...

ومع ذلك كان نذر يعقوب هو أول نذر سجله الكتاب المقدس .

إنها أول مرة نقرأ فيها فى الكتاب كلمة (نذر) ...

وكان نذراً مثلثاً : أن يكون الرب له إلهاً ، أن يقيم بيتاً لله ، أن يعشر كل ما يعطيه له الله" ...

عبارة " يكون الرب لي إلهاً " ، قالها في عصر وثني . وكان يعني بها أن يكون الرب إلهه من الناحية العملية في حياته ، وليس بمجرد الوراثة . كما تشمل هذه العبارة أيضاً معنى العبادة الحقيقية . وهكذا نسمع فيما بعد ، أنه عندما رجع سالماً إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان "إبتاع قطعة أرض.. وأقام هناك مذبحاً. ودعاه إيل إله إسرائيل" (تك٣٣: ١٩، ٢٠) .

وكان يعقوب أول من استخدم عبارة "بيت الله " ...

وقد قالها في هذه المناسبة مرتين : الأولى حينما استيقظ وقال "ما أرهب هذا المكان . ما هذا إلا بيت الله ، وهذا باب السماء" . والثانية حينما قال في نذره "وهذا الحجر الذي أقمته عموداً يكون بيت الله " (تك٢٨: ١٧، ٢٢) . وجميل حقاً أن يكون أول نذر قد نذره أحد رجال الله ، يشمل إقامة بيت لله ...

ونذكر في هذه المناسبة أن ابانا يعقوب ، كان أول من دشّن مكاناً لله .

واستخدم في هذا التدشين زيتاً .. إذ يقول الكتاب "وبكر يعقوب في الصباح . وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه . وأقامه عموداً ، وصب زيتاً على رأسه . ودعا ذلك المكان بيت إيل ".. " (تك٢٨: ١٨، ١٩) . وعبارة بيت إيل معناها بيت الله .

ونحن نذكر هذا الفصل من الكتاب ، حينما نحتفل بوضع أساس كنيسة جديدة، كما نذكره أيضاً في طقس تدشين الكنيسة ، وتدشين المذبح .

صدقوني، إنني أعجب كيف عرف أبونا يعقوب فكرة تدشين بيت لله ، وكيف استخدم لذلك زيتاً .

فيما بعد ، في أيام موسى النبي ، بعد تدشين أبينا يعقوب لبيت إيل بمئات السنين ، أمر الرب موسى النبي أن يصنع زيت المسحة الذي يمسح فيه خيمة الإجتماع ويقدسها ، ويمسح به المذابح وأواني الخدمة ويقدسها ، بل ويسمح به أيضاً هرون وبنيه ويقدسهم ليصيروا كهنة للرب (خر٣٠: ٢٢ - ٣٠) .

لاشك أن يعقوب أبانا ، قد عرف هذا الأمر بوحي إلهي ، باعتباره رجل الله ، وكان هذا عربوناً لمواهبه ...

وهنا أحب أن أضيف ملاحظة بسيطة عن بيت إيل :

حينما كتب موسى النبي سفر التكوين ، وذكر أولى رحلات أبينا ابراهيم بعد دعوة الله له، وقال عنه " فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له . ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقيّ

بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب ، وعاى من المشرق " (تك١٢: ٧، ٨).
إنما كان يقصد مدينة بيت إيل ، كما كانت معروفة فى أيامه بهذا الإسم . ولكنها قبل أبينا يعقوب لم يكن إسمها هكذا . بل يقول الكتاب حينما سماها أبونا يعقوب (بيت إيل) "ولكن إسم المدينة كانت لوز" (تك٢٨: ١٩) .

المهم أن أبانا يعقوب كان الأول فى عدة أمور ، منها :

* كان أول من نذر نذراً للرب .
* كان أول من استخدم تعبير (بيت الله) .
* كان أول من سمى مدينة (بيت إيل) بهذا الإسم .
* كان أول من دشّن مكاناً للرب ، ودشنه بالزيت .

تحصينه للمستقبل

وقد أعدّ له الله رؤية السلم الواصلة بين السماء والأرض ، ورؤية الملاك ، وسماع الوعد الإلهى ، وما قدمه هو من نذر لسببين يتعلقان بالحاضر والمستقبل ...

أما عن ذلك الوقت الحاضر ، فلكى يطمئنه فى خوفه وهربه ، وأيضاً لكى يقيم علاقة خاصة معه ...

وأما عن المستقبل ، فلكى يكون له الإيمان الذى لا يتأثر بعبادة الأصنام التى كانت فى بيت لابان خاله . فالكتاب يذكر أنه عند هروبه من بيت لابان ليرجع إلى بيت أبيه اسحق، أن "راحيل سرقت أصنام أبيها" (تك٣١: ١٩) . ولم يكن يعقوب يعرف ذلك (تك٣١: ٣٢) وذكر أيضاً أن لابان فى مطاردته ليعقوب قال له "لماذا سرقت آلهتى" (تك٣١: ٣٠) .

ونفسر ذلك بتقسيم الناس فى عبادتهم إلى ثلاثة اقسام :

* النوع الأول الذى يعبد الله وحده ، ويمثله أبونا ابراهيم وأبونا اسحق فى أيام أبينا يعقوب . ويمثله قبل ذلك أبونا نوح ، وسلسلة رؤساء الآباء التى وردت فى (تك٥) . مثل آدم وشيث وأنوش .. وأخنوخ ومتوشالح ...
* نوع آخر كان بعيداً كلية عن الله، ويعبد الأصنام ، مثل شعوب الأرض كالكنعانيين والحيثيين والأدوميين وغيرهم .
* **نوع ثالث كان يعبد الله الإله الحقيقى ، مع تأثره بعبادة الأصنام أيضاً ، فكأنه يعبد الله ومعه آلهة أخرى . ومن أمثلة هؤلاء لابان .**

ولذلك قال حينما عقد اتفاقية مع يعقوب فى انفصاله عنه " إله ابراهيم ، وآلهة ناحور آلهة أبيهما يقضون بيننا " (تك٣١: ٥٣) .

ولعله وقع فى هذا النوع أيضاً سليمان بن داود فى أيام شيخوخته حينما حدث " أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين .. " (١مل١١: ٤، ٥) .

لذلك أراد الله بظهوره ليعقوب وكلامه معه أن يحصنه أيضاً ضد العبادة المنحرفة التى كانت فى بيت لابان ، والتى ربما تكون قد تأثرت بها أيضاً راحيل التى صارت زوجة ليعقوب ، وهى إبنة لابان .

على أية الحالات لقد سرّ الرب بنذر يعقوب ، وأيضاً بتدشينه ذلك العمود ، وتسميته للمكان بيت إيل .

لذلك نرى أن الرب لما سمح لأبينا يعقوب بأن يترك لابان ، ويرجع إلى بيت أبيه ، قال له "أنا إله بيت إيل، حيث مسحت لى عموداً، حيث نذرت لى نذراً . الآن قم اخرج من هذه الأرض، وأرجع إلى أرض ميلادك" (تك٣١: ١٣) .

إذن كان ظهور الرب لأبينا يعقوب فى حلم ، والعهد الذى تم بينهما فى بيت إيل . كل ذلك كان نقطة تحول أساسية فى حياة يعقوب ، وبالتالى فى نسله ...

تشجع بعد ذلك يعقوب " ورفع رجليه ، وذهب إلى أرض بنى المشرق " (تك٢٩: ١).

فى هذه المرة ، سار بإيمان قوى . وكان الله يعدّ الطريق قدامه ، ويسهّل سبله .

أعدّ له كيف يلتقى براحيل ثم بأبيها لابان ، بطريقة تشبه إلى حد بعيد كيف يسّر الرب طريق اليعازر الدمشقى عبد أبينا ابراهيم ليختار زوجة لاسحق إبنه، من نفس هذا البيت ، بيت بتوئيل ولابان ... هذا الذى قال له أبونا ابراهيم "إن الرب الذى سرت أمامه، يرسل ملاكه معك وينجح طريقك " (تك٢٤: ٤٠) .

إنه نفس الملاك الذى أرسله الرب ليهدى يعقوب إلى بيت خاله لابان – هذا الذى تذكره يعقوب وهو يبارك افرايم ومنسى (تك٤٨: ١٦) .

هناك عند البئر التقى براحيل ، كما التقى اليعازر الدمشقى برفقة أمه .

وهناك " قبّل يعقوب راحيل ، ورفع صوته وبكى . وأخبرها بأنه أخو أبيها وأنه إبن رفقة" (تك٢٩: ١١، ١٢) .

يعقوب أبو الآباء وملاحظات على قصة زواجه

التقى يعقوب براحيل إبنة خاله عند البئر .

إنه البئر الذى كان الرعاة يستقون منه لغنمهم . وكان على فم البئر حجر كبير ، فينتظر الرعاة إلى أن يجتمعوا ، فيدحرجوا الحجرعن فم البئر. فلما رأى يعقوب راحيل إبنة خاله قادمة مع غنمها ، "تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر، وسقى غنم لابان خاله" (تك٢٩: ٣، ١٠) .

لقد ذكرت المرأة السامرية بئر أبينا يعقوب فى حديثها مع السيد المسيح (يو٤: ١٢)

إذن فهو بئر له تاريخ وشهرة ، ولاشك أن أبانا يعقوب ظهرت قوته حينما زحزح الحجر عن فم البئر وسقى الغنم . وهناك قبّل يعقوب راحيل ، ورفع صوته وبكى . وأخبرها أنه أخو ابيها، وأنه إبن رفقة (تك٢٩: ١١) .

الحجر

أحجار هامة فى حياة يعقوب يذكرها لنا الكتاب :

الحجر الذى كان تحت رأسه ، ومنه ارتفع سلم إلى السماء ، وقد صب على هذا الحجر زيتاً ، ودعا المكان بيت إيل ، أى بيت الله (تك٢٨: ١٨، ١٩) . وهو يذكرنا بحجر الأساس الذى نضعه لكل كنيسة . وهذا الحجر كان فى بدء علاقته بالله .

والحجر الثانى هو الحجر الكبير الذى دحرجه عن فم البئر ، وكان بدء العلاقة بينه وبين راحيل وأبيها لابان (تك٢٩: ١٠) .

والحجر الثالث هو الذى أوقفه عموداً ، ليكون شاهداً بينه وبين لابان، فلا يتجاوز أحدهما هذا الحد إلى الآخر ، وذلك عندما فارق يعقوب لابان (تك٣١: ٤٥- ٥٢) .

أما الحجر الرابع ، فهو تأكيد للحجر الأول ، بعد أن ظهر له الله فى بيت إيل . "فنصب يعقوب عموداً من حجر، وسكب عليه سكيباً ، وصب زيتاً . ودعا إسم المكان

الذى فيه تكلم الله معه بيت إيل" (تك٣٥: ١٤، ١٥) . ولعل هذا يعنى التصاقه ببيت الله فى ذهابه وفى عودته .

أخو أبيها

قال يعقوب لراحيل إنه أخو أبيها (تك٢٩: ١٢) بينما أبوها لابان كان خاله (تك٢٩: ١٠) . فماذا يعنى ذلك ؟

لقد كانوا يستعملون عبارة (أخ) للدلالة على صلة القرابة الشديدة القرب كالعم والخال .

ولذلك نرى أن لابان بعد أن قابل يعقوب ، وقبله فى بيته ، وصار يعقوب يرعى غنمه، أن لابان قال له "ألأنك أخى تخدمنى مجاناً؟! أخبرنى ما أجرتك؟" (تك٢٩: ١٥) ، بينما لم يكن أخاه، وإنما إبن اخته رفقة ...

ونفس التعبير قيل عن العلاقة بين أبرآم ولوط .

قيل فى سبى سادوم "وأخذوا لوطاً إبن أخى ابرام" (تك١٤: ١٢) . وقيل بعد ذلك "فلما سمع ابرآم أن أخاه قد سبى، جمع رجاله المدربين " (تك١٤: ١٤) . بينما أن لوطاً كان ابن هاران أخيه (تك١١: ٣١) .

بنفس التعبير ذكرت الأناجيل عبارة : أخوة المسيح .

ولم يكونوا أخوته ، وإنما كانوا أولاد خالته (مريم زوجة كلوبا) . وانظر فى ذلك كتابنا (اللاهوت المقارن ص ١٠٠ إلى ص ١٠٢) .

زواج يعقوب

أولاً كان زواجاً مبنياً على حب .

وهذه الحقيقة تكررت كثيراً فى قصة يعقوب وزواجه . فقيل "وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر . وأحب يعقوب راحيل " (تك٢٩: ١٧، ١٨) . وأيضاً قيل عنه إنه "أحب راحيل أكثر من ليئة" (تك٢٩: ٣٠) . ولأنه أحبها ، طلبها من أبيها أن تكون له زوجة . فقال له أبوها "اعطيك إياها، أحسن من أن أعطيها لرجل آخر. أقم عندى" (تك٢٩: ١٩) .

إن الزواج المبنى على الحب والمودة ، أعمق بنياناً وأكثر دواماً .

ولا نعنى بالحب علاقة شهوة جسدية ، بل نعنى به تعلق القلب بالقلب، فى مودة وتفاهم، وفى توافق فكر وأسلوب ، كما يقول المثل "من شروط المرافقة الموافقة؟ فإثنان يترافقان معاً طول الحياة، لابد أن تكون بينهما هذه الموافقة . لذلك فإن الأب الكاهن قبل إجراء سرّ الزواج، لابد أن يتأكد أنه بموافقة كل من الطرفين . أما الضغط والإرغام لإتمام الزواج ، فإنه من الأسباب التى تدعو إلى بطلان الزواج .

ملاحظة أخرى نذكرها ، وهى أن أبانا يعقوب خدم لابان سبع سنوات بزواجه من ابنته ...

فهل كانت هذه هى (الشبكة) ، أو ما يسمونه المهر؟ المعروف أن الشبكة تعطى للخطيبة وليس لأبيها .. مثل هذه الشبكة قدمها لعازر الدمشقى لرفقة فى خطبتها لاسحق ابن سيده "أخذ خزامة ذهب وزنها نصف شاقل، وسوارين على يديها وزنهما عشرة شواقل ذهب" (تك٢٤: ٢٢، ٣٠). "وأخرج آنية فضة وآنية ذهب وثياباً وأعطاها لرفقة ، وأعطى تحفاً لأخيها وأمها" (تك٢٤: ٥٣) .

ولكن ماذا أخذت راحيل ، وماذا أخذت ليئة ، فى زواجهما من يعقوب ؟ لاشئ !!

الكل أخذه لابان أبوهما ، كل ما فى الأمر أنه قدّم لكل منهما جارية : زلفة جارية لليئة، وبلهة جارية لراحيل (تك٢٩: ٢٤، ٢٩) . ولم يكن كريماً معهما ...

ولذلك نرى أنه فيما بعد ، لما هرب يعقوب من بيت لابان ، انضمت إليه زوجتاه ، إذ لم يكن لهما مشاعر نحو أبيهما . وقد قالتا فى ذلك : "ألنا أيضاً نصيب وميراث فى بيت أبينا؟! ألم نحسب منه أجنبيتين ! لأنه باعنا وقد أكل أيضا ثمننا!!" (تك٣١: ١٤، ١٥) .

فما هو الثمن الذى دفعه أبونا يعقوب فى زواجه ؟

خدم لابان سبع سنين بابنته راحيل . فلما خدعه وأزوجه ليئة ، خدم سبع سنين أخرى بتلك الأخرى (تك٢٩: ١٨، ٣٠) . أى أنه اشتغل عنده بلا أجر ١٤ سنة راعياً لغنمه . ثم اشتغل ست سنوات أخر بغنم أعطاها له (تك٣١: ٤١) .

ما الذى أخذته البنتان من خدمة ١٤ سنة مجاناً ، خدمها يعقوب لأبيهما لابان ؟ لا شئ طبعاً .

سبع سنوات خدمها براحيل بسبب محبته لها . فلما خدعه لابان وأزوجه ليئة ، خدمه بتلك سبع سنوات أخرى ، على الرغم من أنه لم يطلبها ، وقد أقحمها لابان فى حياته غشاً.. وقد قيل عن محبة يعقوب لراحيل : "فخدم يعقوب براحيل سبع سنين . وكانت فى عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها " (تك٢٩: ٢٠) .

تعطينا القصة فكرة عن فترة الخطوبة .

لقد خطب يعقوب راحيل. ولكنه لم يأخذها زوجة إلا بعد أن أكمل السبع سنوات خدمة. وبعد السبع سنوات قال للابان "أعطنى إمرأتى لأن أيامى قد كملت" (تك٢٩: ٢١) ... فلعلها أطول فترة خطوبة سمعنا عنها . أضيف إليها اسبوع بعد زواجه بليئة . إذ قال له لابان "أكمل اسبوع هذه، فنعطيك تلك .. فأكمل اسبوع هذه، فأعطاه راحيل ابنته زوجة له" (تك٢٩: ٢٧، ٢٨) .

الكبيرة والصغيرة

ملاحظة رابعة نقولها فى قصة زواج أبينا يعقوب وهى :

عادة زواج الأخت الكبيرة قبل الصغيرة ...

كانت راحيل الصغيرة أجمل من أختها الكبيرة ليئة . "كانت حسنة الصورة وحسنة المنظر. وكانت عينا ليئة ضعيفتين " (تك٢٩: ١٧) . فماذا يحدث إن أحب طالب الزواج الأخت الصغيرة وأرادها زوجة؟ هل تقف الكبيرة عقبة أمامها ؟ وطبيعى أن كل من يأتى ليطلب الزواج – سواء يعقوب أو غيره – سيطلب الصغيرة الجميلة !! وتبقى العبارة التى قالها لابان وهى "لا يُفعل هكذا فى مكاننا، أن تُعطى الصغيرة قبل الكبيرة" (تك٢٩: ٢٦) . فماذا كان الحل إذن ؟

الحل هو الخداع الذى قام به لابان ، أنه أعطى ليئة على اعتبار أنها راحيل . فخدع يعقوب .

ولم يطلب يعقوب بطلان الزواج ، وقبل . وعلى الرغم من أنه واجه لابان وقال له "لماذا خدعتنى" ، إلا أنه لعله تذكر أن البركة كان سيقدمها أبوه اسحق لأخيه عيسو، ولكنه بالخدعة أخذ البركة منه .. فكانت هذه عقوبة نالها نتيجة لخديعته لأبيه.. ولو أنها جاءت متأخرة ...

أما طريقة الخداع فى الزواج ، فربما كانت هكذا ..

كانت الزوجة تزف إلى زوجها منقبة ، بحيث لا يرى من وجهها شيئاً . ثم يرفع نقابها عندما يدخل بها إلى خيمته . وقد أعطاه لابان ابنته ليئة بعد أن صنع وليمة " وكان فى المساء ، أنه أخذ ليئة ابنته وأتى بها إليه " (تك٢٩: ٢٣) . ولعل النور لم يكن كافياً فى ذلك الزمان "وفى الصباح إذا هى ليئة " !!

صراع الأختين

الضرة هى الضرة ، حتى لو كانت أختاً وشقيقة .

وحسناً أسموها ضرة ، ولعلها مشتقة من الضرر . وهذا يرينا بلا شك حكمة التزوج بأمراة واحدة ، التى صارت شريعة العهد الجديد ، بعد أن تأكد للكل عملياً مشاكل تعدد الزوجات . فماذا حدث لزوجتى يعقوب ؟

تصارعت الزوجتان ، حول محبة الرجل وإنجاب البنين .

من جهة محبة الرجل قيل إن يعقوب "أحب راحيل أكثر من ليئة " (تك٢٩: ٣٠) .

فى الواقع لست أدرى فى أسبوع ليئة ، أى خلال الأسبوع الأول لزواجها، كيف كان شعورها وهى تعلم أنها مكروهة ، وأنها دخلت بخدعة فى حياة هذا الرجل ، وأنه يقضى معها هذا الأسبوع لكى تُعطى له أختها الجميلة راحيل ..؟

وكيف كان شعور راحيل خلال ذلك الأسبوع ، وهى تشعر أنه كان من حقها ، وقد ظلمها أبوها ، وقدّم اختها بدلاً منها فاغتصبت منها خطيبها؟!

وماذا كان شعور يعقوب ، وهو مضطر أن يقضى ذلك الأسبوع مع ليئة على الرغم منه ، وبخاصة بعد أن اكتشف الخديعة فى صباح اليوم الأول ؟! أكان ذلك أسبوعاً طبيعياً بين زوجين ؟! لست أعلم .

المهم أن هذا الأسبوع الأول الغريب قد انتهى . وعاد يعقوب فأخذ راحيل زوجة له ، وجمع بين الزوجتين الأختين ، الأمر الذى نهت عنه الشريعة أيام موسى النبى ، فأمرت بأنه "لا تأخذ إمرأة على اختها للضر" (لا١٨: ١٨) .

وهنا تدخل الرب لعمل توازن بين الزوجتين .

إن كان لراحيل فضل محبة الزوج ، فليكن لليئة فضل إنجاب البنين . وهكذا قيل "ورأى الرب أن ليئة مكروهة ، ففتح رحمها. وأما راحيل فكانت عاقراً " (تك٢٩: ٣١) . وكانت ليئة تعتقد أن كثرة إنجابها سوف تجذب محبة زوجها لها . كما قالت بعد إنجاب إبنها الأول : "الآن يحبنى رجلى" (تك٢٩: ٣٢) .

يعقوب أبو الآباء
وصراع بين زوجتين

خضع أبونا يعقوب للأمر الواقع ، وقبل ليئة زوجة له ، ثم تزوج باختها راحيل ، وجمع بين الإثنتين . وهكذا عاش مع الزوجة التي يحبها (راحيل) ، والزوجة التى تحبه وتتمنى أن تحظى بمحبته (ليئة) . وعاشت الإثنتان فى صراع ...

لقد ابتعد أبونا يعقوب عن الزواج بالغريبات غير المؤمنات ، لئلا يملن قلبه بعيداً عن الله، كما حدث لسليمان الحكيم فيما بعد (١مل١١: ٣) . وذهب ليتزوج من أسرة مقدسة من أقارب أبيه وأمه . ولم يكن يدرى أن هناك مشاكل يمكن أن تلحقه من هؤلاء (القديسين) أيضاً ، من خاله الذى خدعه ، ومن إبنتى خاله فى صراعهما معاً . ليئة الضعيفة العينين وراحيل الجميلة !

وهنا نرى حنان الله العجيب فى تدخله بينهما :

"رأى الرب أن ليئة مكروهة ، ففتح رحمها . وأما راحيل فكانت عاقراً " (تك٢٩: ٣١) .

لقد وقف الله إلى جوار ليئة الضعيفة المكروهة ، كما وقف إلى جوار يعقوب الضعيف أمام أخيه عيسو .

كانت راحيل شبعانة حباً ، لها العزاء البشرى من محبة زوجها لها . أما ليئة فلم يكن لها سوى الله . لذلك عزاها الله بكثرة البنين . ورأت هى أن إنجابها للبنين سوف يجعل زوجها يحبها . وظاهر هذا من تسميتها لأبنائها ...

تصوروا أن الأولاد الأربعة الأول الذين رُزق بهم أبونا يعقوب ، كلهم قد ولدتهم له ليئة ...

"حبلت ليئة وولدت إبناً ، ودعى إسمه رأوبين ، لأنها قالت إن الرب قد نظر إلى

مذلتي. إنه الآن يحبني رجلي " (تك٢٩: ٣٢) ... حقاً إن شعورها بالذل ، وأن زوجها لا يحبها لأنها فرضت عليه .. كان هذا أمراً مؤثراً .

"وحبلت أيضاً وولدت إبناً . وقالت إن الرب قد سمع إني مكروهة ، فأعطاني هذا أيضاً" (تك٢٩: ٣٣) . " ودعت إسمه شمعون" وهو إسم معناه (سماع) أي سماع الله لطلبتها .

وواضح من كل ذلك إن البنين ميراث من عند الرب ، حسبما ورد في المزمور (مز١٢٧: ٣) .

إنها تقول في الولادة الأولى "الرب قد نظر إلى مذلتي" وتقول أيضاً في الولادة الثانية "الرب قد سمع أني مكروهة فأعطاني هذا أيضاً " . وكل هذا يؤيد قول الوحي الإلهي إن الرب "فتح رحمها" .

ونفس هذا الكلام سنسمعه أيضاً فيما بعد عن أختها راحيل ، إذ يقول الكتاب "وذكر الله راحيل ، وسمع لها الله وفتح رحمها فحبلت وولدت" (تك٣٠: ٢٢) .

واستمرت ليئة في سلسلة الولادة ...

فحبلت للمرة الثالثة "وولدت إبناً ، وقالت الآن هذه المرة يقترن بي رجلي ، لأني ولدت له ثلاثة بنين . لذلك دعي إسمه لاوي" (تك٢٩: ٣٤) . وهو إسم معناه (مقترن) .

"وحبلت أيضاً وولدت إبناً . وقالت هذه المرة أحمد الرب لذلك دعي إسمه يهوذا " (تك٢٩: ٣٥) . ومعنى الإسم هو حمد أو مدح .

ونلاحظ أن ليئة المكروهة ولدت (لاوي) الذي صار سبط الكهنوت . كما ولدت يهوذا الذي صار سبط الملك ، ومنه أيضاً جاء المسيح له المجد .

ولما وصلت إلى هذا الحد ، قال الكتاب مباشرة عنها " ثم توقفت عن الولادة " (تك٢٩: ٣٥) .

لقد أدت أعظم رسالة . ولو أنها لم تلد بعد ذلك ، لكان هذا يكفي . ويبدو أنه كان ينبغي أن يوجد فاصل بين السبط الذي يأتي منه المسيح وباقي الأسباط . ثم كان ينبغي أيضاً أن تتوقف لكي تعطي فرصة لأختها راحيل التي لم تعد تحتمل ...

كانت راحيل في حاجة إلى نظرة عطف من عيني ليئة الضعيفتين .

هنا نقرأ في الكتاب أن "راحيل غارت من أختها ، وقالت ليعقوب :هب لي بنين . وإلا فأنا أموت " (تك٣٠: ١) ... مهما كان حب يعقوب لها ، فإن حرمانها من البنين أتعبها

إلى حد إشتهاء الموت ...

إن حب الأمومة غريزة عند المرأة . وأيضاً إن المرأة العاقر كانت تشعر بالعار وقتذاك (تك٣٠: ٢٣) .

ولكن ما الذى يستطيع أن يفعله يعقوب من أجل راحيل ، مادام البنون ميراثاً من عند الرب ؟! وهنا نرى يعقوب الهادئ ، لأول مرة يحتد على راحيل التى يحبها . فيقول الكتاب "فحمي غضب يعقوب على راحيل . وقال "ألعلى مكان الله الذى منع عنك ثمرة البطن؟!" (تك٣٠: ٢) .

وهنا تتذكر راحيل قصة جدتنا سارة ، وفكرة التبنى ، بأن تحصل على إبن عن طريق جاريتها ...

فقالت ليعقوب "هوذا جاريتى بلهة . أدخل عليها فتلد على ركبتى ، وأرزق أنا أيضاً منها بنين" (تك٣٠: ٣) . إنه نفس كلام سارة مع أبينا ابراهيم عن جاريتها هاجر "أرزق منها بنين" (تك١٦: ٢) ..!

إن الزوجة لا تستريح إطلاقاً أن يدخل زوجها على إمرأة أخرى . ولكن يبدو أن هذه كانت حالة إستثنائية ، للحصول على إبن عن طريق التبنى . وهى حالة لم تكن سارة وراحيل فقط ترضاها ، وإنما بالأكثر تطلبها ..!!

والعجيب أن هذه الوسيلة البشرية كانت نتيجتها سريعة !!

وولدت بلهة إبناً ليعقوب ، فرحت به راحيل جداً . وقالت : قد قضى لى الله . وسمع أيضاً لصوتى وأعطانى إبناً . لذلك دعت إسمه دان (تك٣٠: ٥، ٦) . وكلمة دان معناها يقضى (ومنها كلمة الدينونة) .

وعادت بلهة فحبلت وولدت إبناً ثانياً ليعقوب . فقالت راحيل "مصارعات الله قد صارعت أختى وغلبت . فدعت إسمه نفتالى" (تك٣٠: ٧، ٨). وهو إسم معناه (مصارعتى) .

وعجيب أن راحيل اعتبرت نفسها صارعت وغلبت، بالتبنى عن طريق إبن تلده جاريتها .

وحينئذ اضطرت اختها ليئة ، أن تدخل معها فى نفس ميدان التبنى ، بابن تلده جاريتها .

لم تكتفِ بالأبناء الأربعة الذين ولدتهم هى من رحمها . وإنما أخذت جاريتها زلفة

"وأعطتها ليعقوب زوجة" . فولدت لـه إبنين : الأول أسمته ليئة (جـاد)، والثـانى أسمته (أشير) .

على أن ليئة لم تكتفِ بكل ما صار لها من بنين ، سواء من ولدتهم أو مـن تبنتهم مـن جاريتها .

وأخيراً استأجرت يعقوب من راحيل بلفاّح إبنها .

واللفاح نبات له رائحة طيبة . وكان قد وجده رأوبين فـى الحقل وأعطـاه لأمـه ليئـة ، فطلبته منها راحيل فأعطتها إياه فى مقابل أن تترك لها يعقوب تلك الليلة . فكان أن أنجبت إبنها الخامس ، ودعت إسمه (يساكر) ومعنى الإسم (يعمل بأجرته) (تك٣٠: ١٤– ١٨) .

ثم عادت ليئة فولدت إبناً سادساً ليعقوب أسمته (زبولون) . ومعنى هذا الإسم سكن أو إقامة . وقالت "الآن يساكننى رجلى، لأنى ولدت له ستة بنين" (تك٣٠: ٢٠) .

وولدت له أيضاً الإبنة الوحيدة ، ودعت إسمها (دينة) (تك٣٠: ٢١) .

وهكذا كانت ليئة الزوجة المكروهة هى الأكثر إنجاباً ، ولدت ليعقوب نصـف أولاده ، بقدر ما ولدته الجاريتان وراحيل .

وأخيراً افتقد الله راحيل فى مذلتها ، وفتح رحمها . وولدت يوسف ، قائلـة : قد نـزع الله عـارى (تك٣٠: ٢٢ – ٢٤) . ومعنـى إسمه (يزيد) . لأن راحيل قـالت فـى ذلـك "يزيدنى الرب إبناً آخر" .

وصارت ليوسف محبة كبيرة جداً فى قلب راحيل وفى قلـب أبيـه يعقـوب ، هـذا الـذى جاء أخيراً بعد فترة طويلة من العقم ، تعلّمنا أنه لا يأس . فالله قادر أن يمنـح العـاقر إبنـاً مهما طالت المدة ...

وما أكثر ما كانت لأبناء العواقر أهمية خاصة أو عظمة خاصة فى التاريخ .

مثال ذلك صموئيل ابن حنّة ، وكانت عـاقراً ، وكـانت ضرتهـا الولـود (فننـة) تغيظهـا (١صم١: ٢– ٦) . وقـد صـار صموئيـل نبيـاً عظيمـاً ، وهـو الـذى مسـح داود ملكـاً (١صم١٦: ١٣) . ومن قبل داود مسح شاول ملكاً (١صم١٠: ١) .

ومن أبناء العواقر يوحنا المعمدان . وكانت أليصابات أمه عاقراً (لو١: ٧) . وقد قـال السيد المسيح عن يوحنا إنه أعظم من ولدته النساء (مت١١: ١١). يكفى أنه عمّد المسيح.

شمشون الجبار أيضاً كانت أمه عاقراً (قض١٣: ٢) . وقـد منحـه اللـه قـوة عظيمـة ، وصنع به خلاصاً عظيماً لشعبه .

على أن راحيل فـي رحلـة العودة ، زادهـا اللـه إبنـاً ثانيـاً . وكـانت ولادة متعسرة . ولدته وماتت .

ذلك هو (بنيامين) أصغر أبناء يعقوب (تك٣٥: ١٦ – ١٩) . وقد أحبه يعقوب جداً ، وبخاصة بعد أن حُرم من يوسف زمناً طويلاً . هو ويوسف إبنا راحيل المحبوبـة . ويبدو أن أبناء الزوجة المحبوبة يكونون محبوبين من زوجها .

إنه صراع طويل بين زوجتى يعقوب ، احتمله هو فى هدوء . وكانت نتيجته ١٢ ابنـاً، ثم إبنة .

وفى إنجاب البنين تساوت راحيل مع الجاريتين !

ليئة انجبت ستة بنين وابنة . وكل جارية أنجبت إبنيـن ، وراحيـل أيضـاً أنجبـت إبنيـن وماتت .

ودفنت راحيل فى طريق افراتة التى هى بيت لحم . ونصب يعقوب عموداً على قبرها (تك٣٥: ١٩، ٢٠) .

كانت حياة يعقوب كلها صراعاً ...

انتهى من الصراع مع اخيه عيسو ، ليدخل فـى صـراع بين زوجتيه ، وصـراع مـع خاله لابان ، ثم دخل فى صراع مع الله ليعينه على مقابلة عيسـو فـى رحلـة العودة . ثم صراع بين أولاده وشكيم ، وصراع آخر بين أولاده وأخيهم يوسف .

ولهذا كان يتكلم من قلبه ، ومن خبرات حياته ، حينما قال لفرعون :

"أيام سنى غربتى مئة وثلاثون سنة ، قليلة وردية ، كانت أيام سنّى حياتى" (تـك٤٧: ٩) .

يعقوب أبو الآباء
رحلة العودة إلى بيت أبيه
وصراعه مع خاله لابان

متى ؟ وكيف ؟

قبل أن يبدأ الرحلة إلى بيت خاله لابان ، وعده الله قائلاً "ها أنا معك، أحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض " (تك٢٨: ١٥) . فماذا كان معنى ذلك الوعد "أحفظك" ؟

ليس المعنى : أحفظك من التجارب ، وإنما أحفظك فى التجارب .

فقد تعرض أبونا يعقوب لبعض التجارب ، ولكن الله كان معه فى التجارب وأنقذه: لقد تعرض لصراع بين زوجتيه . ولكنه خرج من هذا الصراع سليماً ، ولم يخسر محبة أية واحدة منهما ، بل انضمت الإثنتان إليه ضد أبيهما حينما انفصل عنه (تك٣١: ١٤، ١٥) . وكان الله معه ، حينما فتح رحم راحيل فولدت له إبناً (تك٣٠: ٢٢) . وصار هذا الإبن أحب أبنائه إليه . كما منحه أيضاً أبناء من باقى نسائه .

وتعرض يعقوب أيضاً لصراع مع خاله لابان ، كما تعرض لخوف شديد من ملاقاة أخيه عيسو . وكان الله معه فى كلا الأمرين ، كما سنرى فيما بعد ...

الأمر الثانى : وعده الله بأن يعيده إلى أرضه . ولكن متى حدث هذا ؟

لقد قضى عشرين سنة بعيداً عن بيت أبيه : منها سنوات اشتغل أثناءها كأجرة للحصول على زوجتيه . والباقى منها فترة إنجاب البنين ، وكانت العشرون سنة كلها فترة تعب ، قال عنها : "كنت فى النهار يأكلنى الحر ، وفى الليل الجليد . وطار نومى من عينى" (تك٣١: ٤١) .

وفى كل هذا التعب كان الله معه . وخلال الست سنوات التى اشتغل فيها للحصول

على غنم ، تدخل الله وساعده كثيراً ، فصار غنياً جداً " إتسع كثيراً جداً . وكان لـه غنم كثير ، وجوارٍ وعبيد، وجمال وحمير" (تك٣٠: ٤٣) . لدرجة أن هذا الغنى أثار عليه خاله لابان "ونظر يعقوب وجه لابان، وإذا هو ليس معه كأمس وأول من أمس" (تك٣١: ٢) . وأيضاً كان الله معه .

موضوع الغنم المخططة وغير المخططة ، يبدو أنه اسلوب بشرى لجأ إليه يعقوب . ولكن الله وافق عليه، ليرد إليه ما سلبه منه لابان (تك٣٠: ٣٢ - ٤٠) (تك٣١: ١٦).

إنه الله الذى يحكم للمظلومين .كما سنراه فيما بعد يحكم لبنى يعقوب ضد فرعون وشعبه ، هذا الذى سخّرهم فى العمل بدون أجر (خر١٢: ٣٥، ٣٦) .

وأمام هذا الغنى ، انطبقت على يعقوب ولابان تلك العبارة المؤثرة التى قيلت عن ابرام ولوط من قبل إنه "لم تحتملهما الأرض أن يسكنا معاً" (تك١٣: ٦) . فكان لابد أن يعتزل أحدهما عن الآخر ...

العـــودة

"وقال الرب ليعقوب : ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك ، فأكون معك" .

أخيراً بعد عشرين سنة ، حقق الله وعده الذى قال له فيه "وأردك إلى هذه الأرض" (تك٢٨: ١٥) . حقاً "ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الآب فى سلطانه" (أع١: ٨) . وكانت لله حكمة معينة فى تحديد وقت رجوع يعقوب إلى بيت أبيه. فماذا كانت ؟

أولاً : لكى لا يرجع إلى بيت أبيه فارغاً . وإنما يكون معه أولاده ونساؤه وجواريه ، وكل غناه .. وثانياً يكون الله قد هيأ قلب عيسو من نحوه ، فلا يؤذيه .

وبدأ يعقوب يخطط لرحلة العودة . ونلاحظ فى ذلك :

١ - اتفاقه مع زوجتيه ، والحصول على رضاهما :

جمعهما وكلمهما فى صراحة ، وشرح لهما الأمر : كيف أنه بكل قوته قد خدم أباهما، الذى غيّر أجرته عشر مرات ، وغدر به ، وتغير وجهه من نحوه . ولكن الله كان معه ، وقال له ملاك الله فى حلم " قد رأيت كل ما يصنع بك لابان" (تك٣١: ٤- ١٢) .

ووافقت ليئة وراحيل وقالتا له " ليس لنا نصيب وميراث فى بيت أبينا ... الآن كل ما قاله لك الله افعل " (تك٣١: ١٤، ١٦) .

٢ – وحسب طبيعة يعقوب وخوفه ، رأى أن يكون رحيله سراً .

أخذت مغادرته بيت خاله لابان شكل الهروب .. "وخدع يعقوب قلب لابان الأرامى، إذ لم يخبره أنه هارب" (تك٣١: ٢٠) .

صـراع مع لابـان

لم يكن لابان مخلصاً فى علاقته مع يعقوب .

على الرغم من أنه قبله فرحاً فى بادئ الأمر باعتباره إبن اخته ، إذ "ركض للقائه وعانقه وقبله، وأتى به إلى بيته .. وقال له "إنما أنت عظمى ولحمى" (تك٢٩: ١٣، ١٤).

وعلى الرغم من أنه لما اشتغل يعقوب فى رعى غنم لابان ، قال له لابان "ألأنك أخى تخدمنى مجاناً؟! أخبرنى ما هى أجرتك؟! (تك٢٩: ١٥) .

إلا أن لابان لم يكن مخلصاً ليعقوب كما قلنا . والأدلة كثيرة منها :

١ – خدعه فى زواجه من راحيل .

فبعد أن خدمه بها سبع سنوات ، أدخل إليه ليئة بدلاً منها . ولما احتج على ذلك يعقوب وقال له "لماذا خدعتنى؟!" أجابه "لا يُفعل هكذا فى مكاننا أن تُعطى الصغيرة قبل البكر" . وألزمه أن يخدمه سبع سنوات آخر ، فى مقابل الإبنة الثانية (تك٢٩: ٢٧، ٣٠) .

أى أن لابان قام بالخداع ، وقام يعقوب بدفع الثمن .

٢ – ولم يكن مخلصاً ليعقوب من جهة الأجرة وطبيعة العمل .

فمن جهة الأجرة قال عنه يعقوب "غدر بى ، وغير أجرتى عشر مرات" (تك٣١: ٧، ٤١) . ومن جهة العمل ، كان يحسب على يعقوب وحده كل خسارة مشتركة . فعلى الرغم من أن غنم الإثنين كانت ترعى معاً ، إلا أنه كان يحسب على يعقوب كل الأغنام المسروقة والتى افترستها الوحوش . وهكذا قال له يعقوب فى عتابه معه "نعاجك وعنازك لم تُسقط .. فريسة لم أحضر إليك ، أنا كنت أخسرها . من يدى كنت تطلبها : مسروقة النهار ، ومسروقة الليل .. لولا أن إله أبى، إله ابراهيم وهيبة اسحق، كان معى، لكنت الآن قد صرفتنى فارغاً " (تك٣١: ٣٨ – ٤٢) .

٣ – وكان لابان أنانياً فى معاملته ليعقوب .

يكفى أنه قال له ، وهو مزمع على العودة إلى بيت أبيه "البنات بناتى، والبنون بنىّ. وكل ما أنت ترى، فهو لى" (تك٣١: ٤٣) .

عجيب أن يصدر هذا من خال نحو إبن اخته ، من شخص قال له قبلا "إنما أنت عظمى ولحمى" (تك٢٩: ١٤) . ولكن يبدو أنه حينما تتدخل الذات ومحبة المال والقنية ، تسقط القيم والمبادئ ، وحتى رابطة القرابة أيضاً ...

٤ - ولم يكن لابان مخلصاً فى مطاردته ليعقوب .

"أخذ أخوته (أى أقرباءه) معه ، وسعى وراءه مسيرة سبعة أيام . فأدركه فى جبل جلعاد" (تك٣١: ٢٣) . لحق به وقد ضرب يعقوب خيامه فى الجبل . فضرب لابان خيامه فى جبل جلعاد ، وواجهه واتهمه .. اتهمه بالخداع وبالغباوة ، وبأنه ساق بناته كسبايا السيف ، وبأنه حرمه من توديعه بنيه وبناته وتقبيلهم ، وتشييعه هو أيضاً بالفرح والأغانى، وبالدف والعود!! (تك٣١: ٢٦- ٢٨) . ولم يكن صادقاً فى كل ذلك .

على أن الرب الإله تدخل لإنقاذ يعقوب من لابان :

نعم الله الذى ينقذ الضعيف ممن هو أقوى منه . "أتى الله إلى لابان الأرامى فى حلم الليل . وقال له : احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر " (تك٣١: ٢٤) . وأحدث هذا الإنذار تأثيره، إذ أن لابان – فى مواجهته ليعقوب – قال له " فى قدرة يدى أن أصنع بكم شراً . ولكن إله أبيكم كلمنى البارحة قائلاً : احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر" (تك٣١: ٢٩) .

نلاحظ هنا أنه يقول "إله أبيكم كلمنى" . ولم يقل "الله" أو "إلهنا" !!

هل عجيب أن الله يكلم لابان ، على الرغم من شره وعبادته للأصنام ؟

كلا . فإن الله قد يكلّم الخطاة والأشرار : يعاقبهم أو ينذرهم أو ينصحهم لكى يتركوا ما هم فيه .. لقد كلّم آدم وحواء فى خطيئتهما ، كما كلّم الحية أيضاً : وفى كلامه عاقبهم جميعاً (تك٣: ٩ – ١٩) . وكلّم الرب قايين مرتين : قبل قتله لأخيه لكى ينذره ، وبعد قتله لكى يعاقبه (تك٤: ٦- ١٢) . بل إن الله قد تكلم مع الشيطان نفسه فى قصة تجربة أيوب الصديق (أى١، ٢) .

ليس العجب إذن فى أن يكلم الله مخلوقاً شريراً . إنما المهم هو نوعية الكلام وهدفه . فما أكثر الذين كلمهم الله وهلكوا . أو كلمهم ثم سقطوا .

سرقت آلهتى !

العجيب أن لابان –بعد أن كلمه الله– قال ليعقوب "لماذا سرقت آلهتى"؟! (تك٣١: ٢٠)

إذن كانت له آلهة آخرى . كانت له أصنـام سبق أن سرقتها راحيل (تك٣١: ١٩) .
كيف أمكن لهذا الرجل أن يعبد آلهة يمكن أن تُسرق ؟! ولكن يبدو أن لابان كان يؤمن بتعدد الآلهة . واضح هذا من قوله (آلهتى) ، ومن قوله فى اتفاقيته مع يعقوب "إله ابراهيم، وآلهة ناحور، آلهة أبيهما، يقضون بيننا" (تك٣١: ٥٣) .

وقد ثار يعقوب على خاله لابان ، لإتهامه بسرقة أصنامه .

لأن اتهامه بالسرقة عموماً أمر مشين لكرامته . واتهامه بسرقة الأصنام أمر ضد كرامة الله ، وضد علاقته الشخصية بالله التى كان يحرص عليها . لذلك قال له "الذى تجد آلهتك معه، لا يعيش. قدام أخوتنا (أى أقاربنا) أنظر ماذا معى وخذه لنفسك" "ولم يكن يعقوب يعلم أن راحيل سرقتها" (تك٣١: ٣٢) .

ففتش لابان كل الأمتعة ولم يجد شيئاً . وخدعته راحيل بأن وضعت الأصنام فى حداجة الجمل وجلست عليها "وقالت لأبيها: لا يغتظ سيدى أنى لا أستطيع أن أقوم أمامك لأن علىّ عادة النساء . ففتش ولم يجد الأصنام " (تك٣١: ٣٥) .

لا تعيش !

على أن حكم يعقوب أبى الآباء – كنبى لله – لم يضع عبثاً .

لقد قال للابان "الذى تجد آلهتك معه لا يعيش" . ومع أن لابان لم يجدها مع أحد، لكنها كانت موجودة مع راحيل .. ومع أن يعقوب لم يحكم على راحيل بالذات ، إذ أنه لم يكن يعلم أنها سرقت أصنام أبيها .. إلا أن حكمه وصل إلى سمع الله فاستجاب. وهكذا ماتت راحيل فى طريق افراثه التى هى بيت لحم (تك٣٥: ١٩) . ولم تكمل معهم الرحلة .

ما كان ممكناً أن تدخل الأصنام إلى أرض الموعد .

ويخاصة عند بيت لحم التى كان سيُولد فيها المسيح ...

هذه الأصنام تدل على أن راحيل قد تأثرت بالوثنية التى كانت فى بيت أبيها . وكان لابد أن يخلص الله يعقوب منها قبل عودته إلى بيت أبيه ...

على أن يعقوب عاتب خاله لابان ، وقال له :

إنك قد جسست جميع أثاثى . ماذا وجدت من جميع أثاث بيتك ؟! ضعه هنا بين أخوتى وأخوتك لينصفوا بيننا" (تك٣١: ٣٧) . ولم يكن ليعقوب أخوة فى تلك المناسبة . ولم تكن له أخوة أيضاً فى وقت إقامة شاهد بينهما من الحجارة ، حينما " قال يعقوب لأخوته

التقطوا حجارة " (تك٣١: ٤٥) . ولكن عبارة أخوته كانت تعنى الأقرباء ذوى القرابة الشديدة ...

وأبرم يعقوب ولابان اتفاقية بينهما وعهداً :

جمعوا حجارة وأقاموها رجمة وعموداً . وقال لابان ليعقوب " شاهدة هذه الرجمة وشاهد العمود: أنى لا أتجاوز هذه الرجمة إليك، وأنك لا تتجاوز هذه الرجمة ، وهذا العمود إلىّ للشر" (تك٣١: ٥٢) . وحلف يعقوب على ذلك بهيبة أبيه اسحق .

وتم هذا الفصل ، الذى هو صراع يعقوب مع خاله لابان . وبقى أن ندخل فى فصل آخر من صراعه فى اللقاء مع أخيه عيسو ، وما سبق ذلك من صراعه مع الله .

يعقوب أبو الآباء
فى رحلة العودة : خوفه من أخيه عيسو

انتهى ابونا يعقوب من مشاكله العائلية ، من جهة صراعات زوجتيه ، ومن مطاردة خاله لابان ، وسار فى طريق عودته إلى بيت أبيه .

رعبه من عيسو

لا أقول كان خائفاً من عيسو ، بل كان مرتعباً ومرتعداً ...

كان مرتعباً منه ، على الرغم من كل وعود الله ومساندته له .

لعل عبارة عيسو كانت لا تزال ترن فى أذنيه "أقوم وأقتل يعقوب أخى" (تك٢٧: ٤١). ولعله كان يذكر كيف أخذ من أخيه البكورية . كيف استغل جوعه فى ذلك اليوم ، وقال له: بعنى بكوريتك .. واحلف لى (تك٢٥: ٣١، ٣٣) . ولعله تذكر أيضاً كيف أخذ منه البركة بالخداع . كيف قال لأبيه "أنا بكرك عيسو" . وكيف قال أبوه لعيسو "قد جاء أخوك بمكر ، وأخذ بركتك" (تك٢٧: ١٩، ٣٥) .

كانت خطايا ارتكبها منذ عشرين عاماً ، لا تزال تطارده وتزعجه ...

لقد أخطأ منذ عشرين عاماً ، أترى قد جاء الآن وقت الحساب ..؟ أترى هل سيلتقى به عيسو فى البرية – بعيداً عن أبيه وأمه – وينتقم منه ؟ لاشك أنه مذنب أمامه . والسنوات الطويلة التى مضت لم تمحُ الذنب بعد .. إن الله يمكن أن يغفر الذنوب . أما عيسو ، فهل يستطيع أن يغفر ؟! إنه صياد يعرف كيف يضرب بالنبال من بعد ، ولا يتحرك قلبه حينما يجد فريسته تتلوى قدامه من الألم .. أتراه سوف يصيدنى أنا أيضاً ؟ هكذا كانت الأفكار تتعب يعقوب ...

كان يدفع ثمن خطيئته خوفاً . الخوف يتعقبه مثلما تعقب هو عيسو أخاه (تك٢٧:

٣٦) (تك٢٥: ٢٦) .

كان الخوف جزءاً من طبيعته ، وكان يزيده أمران : شعوره بالذنب الذى اقترفه تجاه أخيه، ويقينه من شدة أخيه وقسوته ...

والمعروف أن البشرية لم تعرف الخوف إلا بعد الخطية ونتيجة لها . فأبونا آدم بعد أن أخطأ ، خاف واختبأ وراء الأشجار (تك٣: ٨) .

وخوف يعقوب أنساه وعود الله ! أو لم تكن الوعود تكفى لطمأنته !!

كان الوعد الأول الذى سمعه من فم الله ، هو: "ها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب، وأردك إلى هذه الأرض . لأنى لا أتركك ، حتى أفعل ما كلمتك به" (تك٢٨: ١٥) . وكان الوعد الثانى هو قول الرب له "أرجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك ، فأكون معك" (تك٣١: ٣) . وفى المرة الثالثة قال له الله "أنا إله بيت إيل حيث مسحت عموداً .. الآن قم اخرج من هذه الأرض ، وارجع إلى أرض ميلادك " (تك٣١: ١٣) ... ومادام الله هو الذى أمره بالرجوع ، فهو الذى سيحفظه فى رجوعه ، حسب وعده الإلهى "احفظك حيثما تذهب" . ومع ذلك بقى يعقوب خائفاً !!

وكان لابد أن يعمل الله عملاً آخر ليزيل عنه الخوف :

ففيما كان يعقوب سائراً فى الطريق "لاقاه ملائكة الله. وقال يعقوب إذ رآهم :هذا جيش الله.." (تك٣٢: ١، ٢) . إن ملاكاً واحداً يكفى لطمأنة الخائف . ولكن يبدو أن خوف يعقوب كان بدرجة يحتاج فيها إلى ملاقاة جيش من الملائكة ! هذا من جهة الإيمان . أما من جهة العمل فقد تصرف يعقوب هكذا :

إجراءات اللقاء

أرسل أولاً رسلاً قدامه إلى عيسو أخيه لاسترضائه .

"وأمرهم هكذا تقولون لسيدى عيسو : هكذا قال عبدك يعقوب : تغربت عند لابان ، ولبثت إلى الآن . وقد صار لى بقر وحمير ، وغنم وعبيد وإماء . وأرسلت لأخبر سيدى لأجد نعمة فى عينيك" (تك٣٢: ٣- ٥) .

وسنرى أن عبارتى "سيدى، وعبدك" ستتكرران كثيراً منه .

بهاتين العبارتين سوف يسترضى قلب عيسو . لماذا ؟ لأن البركة التى أخذها يعقوب هى "كن سيداً لأخوتك. وليسجد لك بنو أمك" (تك٢٧: ٢٩) . وحينما طلب عيسو البركة

من أبيه اسحق، قال له أبوه عن يعقوب "إنى قد جعلته سيداً لك، ودفعت إليه جميع أخوته عبيداً ... فماذا أصنع لك؟!" (تك٢٧: ٣٧) .

فكأن يعقوب يقول لعيسو : إن كانت بركتى هذه تتعبك ، فمن الآن سأقول لك (سيدى)، وسوف أصير أنا (عبدك يعقوب) . أما عن عبارة "يسجد لك بنو أمك" التى قيلت لى ، فسوف ترانى ساجداً لك مرات عديدة ، لتستريح ..!

واستمر يعقوب فى خوفه لما رجع رسله إليه ...

عادوا إليه وقالوا له عن عيسو "هو أيضاً قادم للقائك ، ومعه أربع مائة رجل" (تك٣٢: ٦) . أربعمائة رجل؟! يا للهول . إن عيسو وحده مخيف ومرعب فكم يكون إذن ، ومعه أربعمائة رجل ؟! هنا ويقول الكتاب "فخاف يعقوب جداً ، وضاق به الأمر " . فماذا فعل فى خوفه وشعوره بالخطر القادم ؟

"قسّم القوم الذين معه ، والغنم والبقر والجمال ، إلى جيشين . وقال : إن جاء عيسو إلى الجيش الواحد وضربه ، يكون الجيش الباقى ناجياً " (تك٣٢: ٧، ٨) .

إذن أين إيمانك يا يعقوب بالوعود الإلهية المتكررة ؟! وما مدى تأثرك بما رأيته من جيش الملائكة الذى ظهر لك ؟! إن الخوف قد أحدث شللاً فى مشاعره ...

وهنا صلى يعقوب صلاة مؤثرة ، قال فيها :

"يا إله أبى ابراهيم ، وإله ابى اسحق ، الذى قال لى : أرجع إلى أرضك وإلى عشيرتك، فأحسن إليك . صغير أنا عن جميع ألطافك وجميع الأمانة التى صنعت إلى عبدك. فإنى بعصاى عبرت هذا الأردن ، والآن قد صرت جيشين . نجنى من يد أخى ، من يد عيسو . لأنى خائف منه أن يأتى ويضربنى الأم مع البنين . وأنت قد قلت : إنى أحسن إليك ، وأجعل نسلك كرمل البحر الذى لا يعدّ من الكثرة " (تك٣٢: ٩- ١٢) . وبات هناك فى تلك الليلة .

ونلاحظ فى صلاة أبينا يعقوب :

إنه ضعيف ، ويعترف لله بضعفه . وهو خائف ، ويعترف أمام الله بخوفه ، وهو أيضاً يعترف بإحسانات الله إليه . ويعترف بأنه صغير عنها أى لا يستحقها . كذلك هو يذكرّ الله بوعوده له أنه سيجعل نسله كرمل البحر فى الكثرة . فكيف يتحقق هذا الوعد، إن جاء عيسو فضرب الأم مع البنين . وهو فى كل ذلك يطلب المعونة قائلاً "نجنى من يد أخى.. لأنى خائف منه" .

ما أعجب هذا الأمر ، أن يطلب أخ النجاة من أخيه .

ولكن الطبيعة البشرية هي هكذا : إن دخلها الشر ، يمكن أن يؤذى الأخ أخاه : حدث هذا حينما قام قايين على هابيل فقتله (تك٤: ٨) . وحينما قال عيسو "أقتل يعقوب أخي" (تك٢٧: ٤١) . وهكذا فعل فيما بعد أخوة يوسف الذين "احتالوا عليه ليميتوه" (تك٣٧: ١٨) . لولا أن أنقذه يهوذا من القتل، فباعه أخوته لقافلة من الإسماعيليين (تك٣٧: ٢٦، ٢٨) . وأمر أبشالوم غلمانه فقتلوا أمنون أخاه (٢صم١٣: ٢٨، ٢٩) . وفي الكتاب المقدس أمثلة أخرى لا داعي لذكرها الآن .

نرجع إلى قصة أبينا يعقوب في خوفه من أخيه عيسو . فنقول كما أنه أرسل إليه رسلاً، وحاول استرضاءه بعبارتي (سيدي، وعبدك) ، واستئذانه في المجئ ، وإخباره بما له من غنم وبقر وأبناء وجوار ، حتى لا يفاجأ بهذا .. فإنه أيضاً :

حاول استرضاء أخيه بالهدايا . وكان كريماً في هداياه .

أرسل إليه "مئتي عنز وعشرين تيساً . مئتي نعجة وعشرين كبشاً . ثلاثين ناقة مرضعة وأولادها . أربعين بقرة وعشرة ثيران . عشرين أتاناً وعشرة حمير . ودفعها إلى أيدي عبيده قطيعاً قطيعاً على حده" ، ليجتازوا أمامه ، جاعلين فسحة بين قطيع وقطيع . (تك٣٢: ١٤- ١٦) . وقال "استعطف وجهه بالهدية السائرة أمامي، وبعد ذلك أنظر وجهه" (تك٣٢: ٢٠) . الظاهر أن الله أراد أن ينقى أملاك يعقوب مما أخذه من لابان .

والعجيب أن يعقوب لم يخفِ عن أحد إحترامه (لسيده) عيسو ، وخوفه منه .

فعل هذا كما قلنا مع الرسل الذين أرسلهم إليه . وفعل كذلك مع العبيد الذين حملوا الهدايا . "أمر الأول قائلاً : إذا صادفك عيسو أخي ، وسألك قائلاً : لمن أنت؟ وإلى أين تذهب؟ ولمن هذا الذي قدامك ؟ تقول : لعبدك يعقوب . هو هدية مرسلة لسيدي عيسو . وها هو وراءنا " . وبمثل هذا الكلام أمر الثاني والثالث وجميع السائرين وراء القطعان (تك٣٢: ١٧ - ١٩) .

مباركة الله له

كان لابد من بركة قوية تصحبه ، قبل المرحلة الأخيرة إلى اللقاء . عبر بأولاده وزوجتيه وجاريتيه وكل ماله عبر مخاضة يبوق ، ثم بقي وحده ، منتظراً عمل الله ...

أراد الله أن يرفع معنويات هذا الخائف ، بأن يريه أنه يمكن أن يصارع ويغلب .

فظهر له فى هيئة إنسـان ، يمكن ليعقوب أن يصارعه ويغلبه . تماماً كأب يداعب طفله، ويُظهر لهذا الطفل أنه يستطيع أن يغلبه فيفرح ..! وبدا أن يعقوب كان قوياً فى مصارعته . وطلب منه صاحب الرؤيا أن يطلقه ، ويعقوب يجيب : لا أطلقك حتى تباركنى . فباركه . ولكن ضربه على حق فخذه ، فصار يخمع عليه .

كان الله يريده أن يفرح بانتصاره ، ولكن لا يكون إنتصاره سبب كبرياء له ...

لذلك سمح له أن ينتصر ، وغيّر إسمه إلى إسرائيل ، قائلاً له "لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت " (تك٣٢: ٢٢ – ٢٨) . ثم ضربه على حق فخذه ...

ودعا يعقوب إسم المكان "فنيئيل " قائلاً "لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ، ونجيت نفسى" (تك٣٢: ٣٠) .

كم مرة ظهر الله لهذا الضعيف ليقويه ، وينقذه من خوفه .

لقاء عجيب للأخوين

لا الرؤيا التى رآها يعقوب افقدته تواضعه ، ولا البركة التى نالها من الله .

فلما رأى عيسو مقبلاً ومعه أربعمائة رجل ، قسّم أسرته إلى ثلاثة اقسام : الجاريتين وأولادهما أولاً ، ليكونوا فى مقدمة المواجهة . ثم ليئة وأولادها وراءهم ، ثم راحيل ويوسف أخيراً ... لكى تسجد كل مجموعة منهم أمام عيسو أخيه . "أما هو فاجتاز قدامهم، وسجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه " (تك٣٣: ٣) .

وهنا حدث أمر عجيب غير متوقع ، انتصر فيه تواضع يعقوب على قسوة عيسو !!

"فركض عيسو للقائه ، وعانقه ، ووقع على عنقه وقبّله ، وبكيا " (تك٣٣: ٤) .

لاشك أن يعقوب كان يحسب ألف حساب لهذا اللقاء ، ويتصور أخطاراً مخيفة تحيط به . أما أن يركض عيسو للقائه ويقبله ، فذلك أمر عجيب ما كان يتصوره ..! أما بكاء عيسو الجبار ، على عنق أخيه يعقوب الذى أخذ منه البكورية والبركة ، فهذا هو العجب العجاب ..!!

كان الله يعمل فى قلب عيسو من الداخل ، وكان يعقوب يسترضيه بتواضعه .

وسجد كل افراد أسرة يعقوب أمام عيسو ، فسأل يعقوب :ماذا منك كل هذا الجيش الذى صادفته ؟ فأجاب باتضاع "لأجد نعمة فى عينىّ سيدى" . وحاول عيسو أن يمتنع عن قبول هدية يعقوب . فأجابه ذاك " إن وجدت نعمة فى عينيك، تأخذ هديتى من يدى . لأنى

رأيت وجهك كما يرى وجه الله ، فرضيت عليّ " (تك٣٣: ١٠) . وألحّ عليه فأخذ ...

حقاً ، إن "الجواب اللين يصرف الغضب" (أم١٥: ١) . وهكذا كانت كلمات يعقوب .

لقد استخدم يعقوب مع عيسو كل الوسائل الممكنة : أرسل رسلاً قدامه ، وأرسل هدايا كثيرة ، واستخدم التواضع العميق ، فى عبارتى سيدى وعبدك ، وفى السجود أمامه هو وكل أسرته ، وفى كلمات الإستعطاف "لأجد نعمة فى عينى سيدى" "رأيت وجهك كما يُرى وجه الله" ....

أمران لم يشأ يعقوب أن يستخدمهما أبداً ، وهما الكبرياء ، ومقابلة العنف بالعنف .

لم يذكر إطلاقاً أنه صاحب البركة والمواعيد الإلهية . ولم يضع أمامه عبارة : "كن سيداً لأخوتك ، وليسجد لك بنو أمك" (تك٢٧: ٢٩) . ولم يغتر بما رآه من رؤى ، وما سمعه من عبارات الحفظ . ولم يضع فى ذهنه إطلاقاً أن يستعد لمقابلة العنف بالعنف . فقد كان باستمرار يشعر بضعفه .

كما أنه استخدم اسلوب الحكمة فى استعداده للقاء أخيه .

ولما دعاه عيسو أن يذهبا معاً ، فضّل أن يسير وراءه ، معتذراً بالغنم المرضعة ، وبأنه لابد أن يسير على مهل . لأن سيره وراء أخيه ، على مهله ، أكثر أمناً ...

ومرّ ذلك اليوم الرهيب العجيب على خير .

أبونا يعقوب مع مشاكل أولاده

تحدثنا عن مشاكل زوجتيه ، وصراعهما فى إنجاب الأبناء .

ونود الآن أن نتحدث عن مشاكل هؤلاء الأبناء ، وقد كبروا وصاروا رجالاً ، بعد عشرين سنة قضاها مع خاله لابان (تك٣١: ٤١) ، وسنوات أخرى بعد إنفصاله عن لابان، حتى أن يوسف إبنه الأصغر حينما حدثت مشكلته مع أخوته كان عمره ١٧ سنة (تك ٣٧: ٢) .

وكانت لهم أيضاً أخت إسمها دينة ، وصارت فى سن يسمح لها بالزواج (تك٣٤: ٨)..

فماذا كانت مشاكل هؤلاء الأبناء لما كبروا . نذكر هنا أهمها :

١ – عدم عدله فى محبته لأولاده .

٢ – مشكلة رأوبين البكر مع سرية أبيه .

٣ – مشكلة دينة . وقتل شمعون ولاوى لكل بيت شكيم .

٤ – مشكلة يوسف وإضطهاد أخوته له .

٥ – مشكلة يهوذا مع كنته ثامار .

وقد كان موقف أبينا يعقوب مع كل مشاكل أبنائه موقفاً ضعيفاً ...

مشاكله مع أخيه عيسو، ومع خاله لابان ، كان يحلها بالحيلة مع الاحتفاظ بضعفه .. سواء فى الحيلة التى اشترى بها بكورية عيسو بأكلة عدس (تك٢٤: ٢٦- ٣٤) ، أو الحيلة التى خدع بها أباه ليأخذ البركة بدلاً من عيسو . وفى هذه أيضاً كان يعقوب ضعيفاً أمام أمه رفقة (تك٢٧) . وكذلك بالحيلة أخذ الغنم من لابان ، وليس بالقوة (تك٣٠) .

مشكلة دينة

حدث أنه لما نجا من أخيه عيسو ، أنه "أتى إلى مدينة شكيم التى فى أرض كنعان.. وابتاع قطعة الحقل التى نصب فيها خيمته من يد بنى حمور أبى شكيم " (تك٣٣: ١٨، ١٩). "وأقام هناك مذبحاً" ...

من المعروف أن الكنعانيين كانوا أشراراً ، ويعبدون الأصنام . فلماذا يا يعقوب تذهب إلى هناك لتستقر؟ لعله يقول : قد أقمت هناك مذبحاً ..! لعله أراد أن يجمع بين عبادة الله ومعاشرة الناس الأشرار!! ولم يأخذ درساً من قصة لوط فى سادوم ، والقياس مع الفارق.. فماذا حدث له ولأبنائه فى شكيم ؟

خرجت ابنته دينة ، لتنظر بنات الأرض ، فنظرها شكيم وأحبها .. (تك٣٤: ١، ٢) .

إنه واحد من أولاد الأرض . رآها وأحبها . وأخطأ إليها ونجسها وأذلها . وكانت مشكلة أصطدم بها يعقوب . ولما سمع بالخبر، يقول الكتاب إنه سكت إلى أن جاء أبناؤه من الحقل . أما أبناؤه فعزموا على أن يقتلوا شكيم وأباه وكل أهل بيته ...

حمور عرض أن يعطوا دينة لابنه شكيم زوجة ، ووافق على كل ما يعرضونه من شروط ، قائلاً "دعونى أجد نعمة فى أعينكم . فالذى تقولون لى أعطى " ...

أما أبناء يعقوب فبمكر اشترطوا أن يختتن كل ذكر فى المدينة ، لأنهم لا يمكنهم أن يعطوا أختهم لرجل أغلف .. وقبل حمور وشكيم هذا الشرط ..

اختتن كل ذكور المدينة . وإذ كانوا متوجعين ، أخذ شمعون ولاوى كل منهما سيفه وأتيا على المدينة بأمن . وقتلا كل ذكر ، وقتلا حمور وشكيم بحد السيف . ونهبوا كل ما فى المدينة ...

فماذا فعل يعقوب ؟ ... مجرد توبيخ لشمعون ولاوى !

قال لهما "كدرتمانى بتكريهكما إياى عند سكان الأرض الكنعانيين والفرزيين، وأنا نفر قليل . فيجتمعون علىّ ويضربوننى أنا وبيتى" (تك٣٤: ٣٠) ... لم يوبخهما على الغدر والمكر وقتل أناس بينهم عهد وأمان !! إنما كان سبب توبيخه لهما هو ضعفه وخوفه .

أما هما فلم يعترفا بما ارتكباه من خطأ ، إنما بررا ذلك بقولهما لأبيهما "أنظير زانية يفعل بأختنا؟!" مع أن الناس سلكوا معهم بأسلوب ارقى من أسلوبهما !!

وكان لابد ليعقوب أن يترك تلك الأرض ويرحل .

على أنه قبل أن يموت، وحينما حان الوقت ليبارك أولاده، تذكر خطيئة شمعون ولاوى. فقال "شمعون ولاوى أخوان. آلات ظلم سيوفهما. فى مجلسهما لا تدخل نفسى. بمجمعهما لا تتحد كرامتى. لأنهما فى غضبهما قتلا إنساناً، وفى رضاهما عرقبا ثوراً. ملعون غضبهما فإنه شديد، وسخطهما فإنه قاس.." (تك٤٩: ٥- ٧) .

فقال له الله "قم اصعد إلى بيت إيل، وأقم هناك. واصنع هناك مذبحاً لله الذى ظهر لك، حين هربت من وجه عيسو أخيك " (تك٣٥: ١) .

لو كان يعقوب من بادئ الأمر قد ذهب إلى بيت إيل ، ولم يسكن فى شكيم فى أرض الكنعانيين ، ما كانت دينة قد تنجست ، وما كان شمعون ولاوى قد ارتكبا ما ارتكباه من غدر وقتل ...

كل هذا يعطينا درساً فى اختيار البيئة التى نسكن فيها .. لأنه نتيجة السكنى فى بيئة لابان الذى يعبد الأصنام (تك٣١: ٣٠) ، وفى بيئة للكنعانيين .. نسمع عبارة عجيبة سجلها الكتاب ، استعداداً للذهاب إلى بيت إيل .. وهى :

"فقال يعقوب لبنيه ولكل من كان معه: اعزلوا الآلهة الغريبة التى بينكم وتطهروا وابدلوا ثيابكم" (تك٣٥: ٢) .

إنها عبارة روحية يقولها لأبنائه ، وهو ذاهب إلى أرض مقدسة . ولكن لماذا لم يقلها من قبل؟ ولماذا لم يفتش بنفسه ، إن كانت توجد معهم أصنام، ينزعها منهم؟ يقول الكتاب "فأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التى فى أيديهم، والأقراط التى فى آذانهم. فطمرها يعقوب تحت البطمة التى عند شكيم" (تك٣٥: ٤) .

فلما تخلص من أصنام أفراد أسرته ، ولما ذهب إلى بيت إيل وبنى مذبحاً للرب هناك، نقرأ بعد هذا أنه "ظهر الله ليعقوب أيضاً .. وباركه " (تك٣٥: ٩) . فدشن يعقوب مكاناً للرب هناك: نصب عموداً فى المكان الذى فيه تكلم معه الرب، وسكب عليه سكيباً ، وصب عليه زيتاً . ودعا إسم المكان بيت إيل (تك٣٥: ١٤، ١٥) ...

خطية رأوبين

حدث بعد موت راحيل ، أن رأوبين بكر يعقوب "ذهب وأضطجع مع بلهة سرية أبيه" (تك٣٥: ٢٢) . وبلهة هذه تعتبر فى درجة أمه ، لأنها إمرأة أبيه، وهى أم أخويه دان

ونفتالى (تك٣٥: ٢٥) .

يسجل الكتاب أن يعقوب سمع ما فعله رأوبين (تك٣٥: ٢٢) .. ولكنه لم يفعل شيئاً، ولم يؤدب رأوبين ...!

كل ما فى الأمر أن أبانا يعقوب قبل موته . وفيما هو يخبر أبناءه بما يصيبهم فى آخر الأيام، قال "رأوبين، أنت بكرى قوتى وأول قدرتى، فضل الرفعة وفضل العز. فائراً كالماء، لا تتفضل . لأنك صعدت على مضجع أبيك، حينئذ دنسته . على فراشى صعد" (تك٤٩: ٣، ٤) .

وهكذا نرى أن مجد البكورية ، لم يكن مقياسه بالسن .

رأوبين هو البكر حسب السن ، ولكنه لا يتفضل .. ما كان له ولا لنسله نصيب فى عظمة الكهنوت ولا فى عظمة الملك . ولم تكن له الهيبة التى يقود بها اخوته، لما أرادوا التخلص من يوسف (تك٣٧: ٢٢- ٢٩) .

يهوذا وكنته ثامار

"أخذ يهوذا زوجة لبكره عير ، إسمها ثامار . وكان عير بكر يهوذا شريراً فى عينى الرب، فأماته الرب" (تك٣٨: ٦، ٧) . ورفض ابنه الثانى أونان أن يقيم نسلاً لأخيه من ثامار ، فأماته الرب أيضاً (تك٣٨: ٨- ١٠) . ولما لم يعطِ يهوذا لثامار ابنه الثالث شيله ، دبرت له حيلة لتسقطه معها ، وتنجب منه نسلاً !!

بعد موت إمرأة يهوذا ، ذهب إلى تمنه . وفى الطريق رأى إمرأة حسبها زانية ، فدخل إليها وزنى معها ، وهو لا يعرف أنها ثامار، لأنها كانت تغطى وجهها (تك٣٨) .

وانكشف الأمر أخيراً ، وأنجبت منه توأمين هما فارص وزارح .

واعترف يهوذا وقال "هى أبر منى، لأنى لم أعطها لشيله إبنى" .

تمييزه فى محبته لأولاده

كما كان أبونا يعقوب يحب راحيل أكثر من محبته لأختها ليئة، وقد سبب هذا صراعاً بين الأختين ومشاكل عديدة ...

كذلك أحب ابنى راحيل يوسف وبنيامين أكثر من أبناء ليئة ، ومن باقى الأبناء . وقد سبب هذا مشاكل سوف نرويها .

أحب يوسف فمنحه قميصاً ملوناً سبب حسد أخوته . وأحبه فبكى عليه كل أيامه . وأحبه حتى في ميراثه ، فمنحه الضعف ، سبطين هما افرايم ومنسى .

وأحب بنيامين بعد يوسف ، وظهر ذلك في قصة إرساله إلى مصر . ولكن محبته لبنيامين لم تسبب مشاكل مع أخوته ، بل دافعوا عنه بكل قوتهم أمام يوسف .

يوسف وأخوته

أما مشكلة يوسف بن يعقوب مع اخوته الذين تحايلوا لكي يقتلوه ، فسوف نخصص لها فصلاً خاصاً من هذا الكتاب (من ص٧٠ - إلى ص ٧٧). .

وحينما نتحدث عن يوسف ، نتحدث عن فاصل في حياة يعقوب يقسمها إلى قسمين:

حياة يعقوب قبل أن تبدأ قصة يوسف ، والنصف الثاني من حياته حينما بدأ طريق لقائه مع يوسف. بل إن هذا النصف الثاني أصبح جزءاً من حياة يوسف .

فلنبدأ إذن قصة يوسف ...



تأملات في حياة يوسف الصدّيق

بإنجاب البنين استراح أبونا يعقوب أبو الآباء من الصراع بين زوجتيه ليئة وراحيل. ولكنه دخل فى مرحلة صراع أخرى فى محيط الأبناء .

نلاحظ أنه كما أن يعقوب أحب راحيل أكثر من ليئة ، كذلك أحب إبنى راحيل يوسف وبنيامين ، أكثر من جميع أبناء ليئة . على أن الله - تبارك إسمه - عوّض ليئة عن هذا الأمر، فجعل السلطة كلها فى نسل ليئة . إذ جعل الكهنوت فى سبط لاوى وهو ابن ليئة، وجعل الملك فى سبط يهوذا، وهو أيضاً ابن ليئة . بل أن السيد المسيح نفسه ولد من سبط يهوذا ، أى من نسل ليئة كذلك .

يوسف هو أول ابن وُلد ليعقوب من راحيل . وبولادته بدأت مرحلة هامة فى تاريخ هذه الأسرة ، بحيث تحول تأريخها من أبينا يعقوب إلى إبنه يوسف .

وأصبح علينا أن نتحدث عن يوسف باعتباره عنصراً أساسياً، ثم نعود أخيراً إلى أبينا يعقوب .

شخصية يوسف

تميزت شخصية يوسف بعدة أمور منها :

١ - كان إنساناً محبوباً .

٢ - كان ناجحاً ، وحسن التدبير . وكان الرب معه .

٣ - كان مثالاً فى العفة .

٤ - كان رجل أحلام ، كما كان مفسراً للأحلام .

٥ - كان صبوراً ، حتى حوّل الله الشر إلى خير .

٦ - كان باراً بأبيه ، وبأخوته الذين ظلموه .

٧ - كان أفضل (وزير تموين) عرفته مصر .

وسنتناول الآن هذه الصفات واحدة فواحدة ...

يوسف الشخصية المحبوبة

١ - كان يوسف هو الابن المحبوب لأبيه . فلماذا ؟

★ كان كما قلنا أنه ابن الزوجة المحبوبة راحيل .

★ قد وُلد بعد فترة طويلة من الإنتظار ، حينما فتح الله رحم راحيل فولدته ، وقالت "قد نزع الله عارى . ودعت إسمه يوسف" (تك٣٠: ٢٢ - ٢٤) . ودائماً يكون الابن محبوباً ، إذ ما وُلد بعد طول إشتياق : مثل اسحق بالنسبة إلى ابراهيم (تك٢٢: ٢) ، ومثل صموئيل بالنسبة إلى حنة إمرأة ألقانة (١صم٢: ١) . ومثل يوحنا (المعمدان) بالنسبة إلى أبيه زكريا (لو١: ٦٧ - ٦٩) .

★ وبالنسبة إلى أبينا يعقوب اسرائيل كان يوسف محبوباً منه، لأنه ابن شخيوخته . وهكذا يقول الكتاب "وأما أسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر أبنائه ، لأنه ابن شيخوخته" (تك٣٧: ٣) .

★ وكان يوسف أيضاً جميلاً . قال عنه الكتاب إن كان "حسن الصورة، وحسن المنظر" (تك٣٩: ٦). وهذا الجمال صفة خصّ بها الله بعض شخصيات الكتاب المشهورة: مثل موسى النبى (عب١١: ٢٣) وداود النبى أيضاً (١صم١٦: ١٨) .

٢ - وكما كان محبوباً من أبيه، كان محبوباً فى بيت فوطيفار.

★ كان محبوباً من فوطيفار " فوكلّه على بيته ، ودفع إلى يده كل ما كان له .. فترك كل ما كان له فى يد يوسف . ولم يكن يعرف شيئاً إلا الخبز الذى يأكل" (تك٣٩: ٤، ٦).

★ وإمرأة فوطيفار أيضاً ، أحبت يوسف. ولكنها إنحرفت فى محبتها له .. (تك٣٩: ٧- ١٠) .

٣ - وحتى فى السجن ، كان يوسف محبوباً كذلك :

"فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين فى بيت السجن. وكل ما كانوا يعملون هناك، كان هو العامل . ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئاً البتة مما فى يده " (تك٣٩: ٢٢، ٢٣)

وفى السجن أيضا كان موضع محبة وثقة المسجونين . وهكذا وثق به رئيس سقاة فرعون ورئيس خبازيه ، وقصا عليه حلميهما لكى يفسرهما لهما ...

٤ - وكان يوسف محبوباً من فرعون أيضاً :

"وحسن كلام يوسف فى عينى فرعون وفى عيون جميع عبيده. فقال فرعون لعبيده : هل نجد مثل هذا، رجلاً فيه روح الله" " ثم قال فرعون ليوسف : انظر قد جعلتك على كل أرض مصر. وخلع فرعون خاتمه من يده ، وجعله فى يد يوسف . وألبسه ثياب بوص، ووضع طوقاً من ذهب حول عنقه . وأركبه فى مركبته الثانية . ونادوا أمامه أركعوا" "وقال فرعون ليوسف : بدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر" (تك٤١: ٣٧ - ٤٤) .

★وعن هذا الأمر قال يوسف لأخوته فيما بعد إن الله "جعلنى أباً لفرعون، وسيداً على كل بيته ، ومتسلطاً على كل أرض مصر" (تك٤٥: ٨) .

٥ - على أن محبة يعقوب ليوسف، سببت له حسداً فى قلوب أخوته!

ذلك لأنه "صنع له قميصاً ملوناً . فلما رأى أخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع أخوته، ابغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام" (تك٣٧: ٣، ٤) .وهنا نلمح خطأ فى أبينا يعقوب : فكما أنه لم يعدل بين زوجتيه فى المعاملة ، كذلك لم يعدل بين أبنائه. وكان لذلك أثره الذى تسبب فى عداوة اخوة يوسف له ، وصلت إلى محاولتهم قتله (تك٣٧: ١٨) . وهكذا صار يعقوب عثرة لبنيه فى تصرفه ...

موضوع القميص الملون درس يقدمه لنا الكتاب :

درس فى أن الأب يجب ألا يثير الأخوة بمعاملة واحد منهم أفضل من الباقين، حتى لا يحقدوا عليه. كذلك على الأم أن تكون عادلة فى معاملتها لأبنائها. فإن أنجبت إبناً جديداً لا يصح أن تعطيه حناناً مبالغاً فيه أمام الطفل الأكبر منه، بل تعطى الطفل الأكبر فرصة أن يحب الصغير، وكأنه لعبة جديدة أحضرها له والداه .

لا تظنوا أن الأطفال ملائكة لا يتأثرون ولا يغيرون .

ما أكثر العراك الذى يقوم بين الأطفال من أجل لعبة يتميز بها أحدهم ، أو بسبب ملابس ، أو نوع من الحلوى ، أو لون من التدليل أو المعاملة المفضلة .. لذلك إن كان لك طفلان ، وأحضرت لهما لعباً ، اشتر من كل لعبة إثنتين متشابهتين ، لكل واحد منهما واحدة تشبه الأخرى . وإن قلت لواحد منهما كلمة مديح، قل مثلها أو ما يشبهها للآخر .

حتى لا تثير حسد أحدهما على الآخر ... -

تصوروا ، حتى رسل المسيح تعبوا من هذه النقطة ذاتها ، وبلا سبب من جهة المسيح !!

فلما أتت أم إبنى زبدى إلى السيد المسيح وقالت له "قل أن يجلس إبناى هذان : واحد عن يمينك والآخر عن يسارك فى ملكوتك" .. ومع أن السيد لم يستجب لهذه الطلبة، قال لها "أما الجلوس عن يمينى وعن يسارى ، فليس لى أن أعطيه إلا للذين أعدّ لهم من أبى" (مت٢٠: ٢١ – ٢٣) .. إلا أنه على الرغم من هذا، يقول الإنجيل "فلما سمع العشرة (الرسل)، إغتاظوا من أجل الأخوين" (مت٢٠: ٢٤) ..

فإن كان هذا قد حدث مع الرسل ، فماذا إذن عن باقى الناس !

إن الإنسان الكامل هو الذى يحب الكل . إن اللـه يشرق على الصالحين والطالحين، ويمطر على الأبرار والأشرار . إن أنجح أب وأنجح مربى ، هو الذى يُشعر كل واحد أن له محبة خاصة فى قلبه هو بالذات .. وهذا ما ينبغى أن يراعيه خدام التربية الكنسية سواء مع الأطفال أو مع الشبان ...

لقد فرح يوسف بالقميص الملون، ولم يدرِ أنه سيكون سبباً لمشاكله . وأبوه يعقوب ظن أنه بهذا القميص يقدم خيراً لإبنه، ولم يدرِ أنه سيقدم به التجارب والضيقات لهذا الإبن الصغير المحبوب!

خطأ فى طفولة يوسف

لم يكن القميص الملون هو السبب الوحيد لتجارب يوسف ..

إنما كان حديثه عن أحلامه هو سبب آخر ...

ربما كان إنساناً بسيطاً من النوع الذى يقال عنه إن "الذى على قلبه، هو على لسانه". ولكن فى الواقع إن أحاديثه عن أحلامه سببت حسداً من أخوته له ، بل أيضاً سببت لهم غيظاً .. لأن أحلام يوسف كانت تحمل أفضلية له ، وتقدماً له عليهم!! وهكذا يقول الكتاب:

"وحلم يوسف حلماً وأخبر أخوته، فازدادوا أيضاً بغضاً له" (تك٣٧: ٥) .

قال حلمت "ها نحن حازمون حزماً فى الحقل. وإذا حزمتى قامت وانتصبت . فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتى" . فماذا كان ردّ الفعل عند أخوته لما سمعوا حلمه هذا؟

لقد قالوا له "ألعلك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً؟" "وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه " (تك٣٧: ٦ -٨) .

لم تكن حكمة منه أن يخبر أخوته بحلم يخضعهم فيه له .

والأسوأ من هذا أنه حلم حلماً آخر له نفس المغزى، وقصه على أخوته أيضاً (تك٧: ٩) : قال "إنى قد حلمت حلماً أيضاً . وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لى" . فحسده أخوته . أما أبوه فحفظ الأمر فى قلبه. غير أنه انتهره أمام أخوته، وقال له "ما هذا الحلم الذى حلمت؟!" هل نأتى أنا وأمك وأخوتك ونسجد لك؟!" .

أحلام التمجيد يليق بها الإخفاء ، حتى لا تثير حسداً .

بل من الصالح أن يخفيها الإنسان عن نفسه ، أى لا يعود يتذكرها ، حتى لا تسبب له ارتفاع القلب من الداخل .

ربما أن يوسف لم يضع فى قلبه مثل تلك النتائج .. أو أنه لم يستطع أن يحتمل إخفاء الحلم ، دون أن يخبر به غيره وببساطة فعل، ولكنها كانت بساطة غير حكيمة ...

على أن أمر هذه الأحلام لم يكن بسيطاً على أخوته. فلما ذهب لكى يفتقدهم فى المرعى. ورأوه من بعيد، واحتالوا أن يميتوه، "قال بعضهم لبعض: هوذا هذا صاحب الأحلام قادم" (تك٣٧: ١٨، ١٩).

خطأ آخر وقع فيه يوسف ، وهو توصيل النميمة .

كان ابن سبع عشرة سنة ، وكان يرعى الغنم مع اخوته أبناء إمرأتى أبيه (جاريتيه بلهة وزلفة) . يقول الكتاب "وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم" (تك٣٧: ٢) . كان خطأ أن يفعل هذا ، ولو أن الكتاب لم يذكر لنا النتائج السيئة لهذا الخطأ ...

نقطة أخرى فى شخصية يوسف ، وهى أنه :

كان ناجحاً وكان الرب معه

ينطبق عليه ما قيل فى المزمور الأول عن الرجل البار إنه "كل ما يعمله ينجح فيه" (مز١: ٣) .

كان ناجحاً كغلام يرعى الغنم . وقد نجح فى افتقاده لأخوته وطلب سلامتهم (تك٣٧: ١٢ – ١٧) . وكان يوسف ناجحاً فى بيت فوطيفار . فقيل عنه "وكان الرب مع يوسف، فكان رجلاً ناجحاً . وكانت بركة الرب فى بيت المصرى .

وكان يوسف أنجح سجين ، وأنجح وزير تموين .

قيل عنه "إن الرب كان معه ، ومهما صنع كان الرب ينجحه " (تك٣٩: ٢٣) . لذلك ترك رئيس بيت السجن كل شئ في يده .

أما نجاحه كوزير تموين ، فواضح من أنه أنقذ مصر من المجاعة ، في حكمة مدى سبع سنين ، وكذلك البلاد المجاورة .

فضائل أخرى

١ – كان إنساناً مثالاً للعفة وطهارة الجسد . وهذا ما سوف نتحدث عنه، حينما نذكر قصته مع إمرأة فوطيفار .

٢ – كان لا يكافئ الشر بالشر ، ولا ينتقم لنفسه ، وهذا ما سوف نتحدث عنه في لقائه في مصر مع اخوته .

٣ – كان إنساناً باراً بأبيه . وهذا ما حدث حينما استضافه في مصر، وقدمه لفرعون، واعتنى به طول فترة المجاعة . واهتم به وبإكرامه بعد موته .

٤ – كان إنساناً حكيماً حسن التدبير . وقد ظهر هذا في حسن تدبيره لبيت وأملاك فوطيفار، وأيضاً في حسن تدبيره لتموين مصر أثناء المجاعة . وقد شهد فرعون لحكمته، ولذلك قلّده شئون مصر .

٥ – كان أميناً من نحو الله ،واسم الله على لسانه في أرض غربته .

٦ – كان باراً بأبيه وأسرته . ولم يستحِ – وهو فيعلو رتبته – من أن أباه وأخوته مجرد رعاة . وقدّمهم هكذا لفرعون .

٧ – كان حسّاس المشاعر . وقد بكى تاثراً وحباص في مواقف متعددة كما سنرى في قصة حياته .

✠ ✠ ✠

والآن نتحدث عن علاقته بأخوته .

يوسف الصديق وكم قاسى من إخوته

يتحدث الناس عن محبة الأخوة ، ولكنها ليست قاعدة ثابتة. فلم توجد هذه المحبة عند قايين الذى قتل هابيل أخاه . ولم توجد عند عيسو الذى قال : أقوم وأقتل يعقوب أخى" (تك٢٧: ٤١) . كذلك لم توجد عند أبشالوم الذى قتل أخاه أمنون (٢صم١٣: ٢٨ - ٣٢). وحدث هذا أيضاً بالنسبة إلى أخوة يوسف الذين أرادوا أن يقتلوه (تك٣٧: ١٨ - ٢٠) .

تدرج إلى أسوأ

بدأت القصة بحسدهم له بسبب قميصه الملون .

قال الكتاب إنهم أبغضوه لأن أباهم أحبه أكثر منهم "ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام " (تك٣٧: ٤) . كان يمكنهم أن يكسبوا محبة أبيهم بأعمال فاضلة وبطريقة سليمة . ولكنهم لم يفعلوا . وكان رد فعلهم هو بغضتهم لأخيهم !! وكان بإمكان يعقوب أبيهم أن يعالج الأمر بأن يهديهم قمصاناً كأخيهم، فى يوم عيد مثلاً . ولكنه لم يفعل ، وبدأت الأمور تتعقد

وزادت بغضتهم لأخيهم بسبب أحلامه وكلامه .

حلم يوسف حلماً أن حزمهم سجدت لحزمته . وأخبر أخوته بذلك الحلم . وهنا لم يقابلوه بالبغضة الصامتة، وإنما واجهوه بمشاعرهم . وقالوا له : ألعلك تملك علينا ملكاً وتتسلط علينا تسلطاً. وإزدادوا أيضاً بغضاً له بسبب أحلامه ، ومن أجل كلامه" (تك٣٧: ٥ - ٩) . وهنا أخطأ يوسف بحديثه عن حلمه .

هناك أمور حسنة. إن تحدثنا عنها ، تجلب لنا حسد الناس ، وأيضاً حسد الشياطين.

وبخاصة لو كانت هذه الأمور تحمل مقارنة بيننا وبين الغير . مثل حلم يوسف الذى يعنى سجود أخوته له . كان ينبغى أن يكتمه ، فلا يحدثهم عنه . وإن لم يستطع الكتمان ، كان يمكنه أن يقص الحلم على أبيه وحده . . ولكنه لم يفعل . بل إنه لما حلم حلماً آخر يحمل نفس المعنى " قصه أيضاً على أخوته . وقال إنى حلمت حلماً أيضاً . وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لى" . وفى هذه المرة انتهره أبوه وقال له : ما هذا الحلم الذى حلمت . هل نأتى أنا وأمك ونسجد لك؟! وحسده أخوته (تك٣٧: ٩ – ١١) .

لم يأخذ يوسف درساً من مشاعر أخوته بسبب حلمه الأول. وأضاف حطباً على النار

كلها دروس لنا ، لكى لا نتحدث عن الأمور التى يكون فيها مظهر عظمة لنا ، حتى لو كانت من الناحية الروحية ، كما يتحدث البعض عن اختبارات روحية تحمل لوناً من الفخر ! ما أعظم السيدة العذراء التى لم تتحدث إطلاقاً عن أمجاد البشارة بالحبل المقدس، وما كان فيها من ظهورات ملائكة ، ووعود إلهية ، وتطويب القديسة أليصابات لها، ومباركة سمعان الشيخ وحنة النبية.. بل "كانت تحفظ جميع هذه الأمور فى قلبها" (لو٢: ٥١) .

رؤى العذراء وأحلام يوسف النجار (مت١، ٢) كانت كلها من الله، كما كانت أحلام يوسف الصديق . ولكن حديث يوسف عن أحلامه سبب له ضرراً ، لأنها كانت تحمل تفوقه على أخوته الذين حدثهم بها ... تضايقوا منه حتى أسموه (صاحب الأحلام) استهزاء به (تك٣٧: ١٩) ...

يوسف أبغضه أخوته ، ولكنه لم يبغضهم .

على الرغم من أنهم "لم يكلموه بسلام" . ثم أظهروا بغضهم بعد حديثه عن حلمه الأول.. كانت وصية الرب "أحسنوا إلى مبغضيكم" (مت٥: ٤٤) موجودة فى قلب يوسف قبل أن يقولها السيد المسيح بحوالى ألفى عام! كما نفذ وصية "لا تزنِ" قبل أن تكتب على لوحى الشريعة بألف وأربعمائة عام. لأن قلبه كان نقياً ، يعمل بوصية الله قبل أن يقولها الله علانية !! كان يتفهم مشيئة الله ، بضميره بالشريعة الطبيعية .

فلما أوصاه أبوه بافتقاد أخوته، خرج يسأل عن سلامتهم .

كانوا يرعون الغنم وتأخروا . فخرج يفتش عليهم فى الجبال والتلال، ووصل من حمور إلى شكيم ، حتى تاه وضل الطريق . ولم يعتذر بصعوبة الأمر (تك٣٧: ١٥) . وأرشده رجل إلى الطريق ووصل إلى إخوته. فلم يقدروا له هذا الجميل، بل حينما

ابصروه قالوا : "هوذا صاحب الأحلام قادم . هلمّ نقتله" (تك٣٧: ١٩، ٢٠) .

مجموعة خطايا

فكروا في قتله ، وتحايلوا على ذلك . وقالوا "نطرحه في إحدى الآبار، ونقول إن وحشاً رديئاً قد أكله . فنرى ماذا تكون أحلامه"!!

وهكذا يكونون قد فكروا في القتل ، وفي الخديعة والغش ، وفي الإساءة إلى أبيهم الذي كانت نفسه متعلقة بابنه يوسف، بالإضافة إلى حسدهم لأخيهم، وبغضتهم له .. وبهذا يكونون قد وقعوا في مجموعة من الخطايا ...

بل أكثر من هذا يكونون قد قاوموا مشيئة الله !

لأنه إن كان الله قد أعلن مشيئته في الحلم ، أن يسجدوا ليوسف، فلابد أنهم سيسجدون له ، مهما فكروا في قتله .. وعبارة "نرى ماذا تكون أحلامه" ، معناها أيضاً "ماذا ستكون مشيئة الله؟!" . أي أنهم سوف يعطلون تلك المشيئة الإلهية بقتلهم يوسف!! يشبه هذا الأمر قول عيسو "أقتل يعقوب أخي" . بينما كانت مشيئة الله أن يصير كل منهما شعباً . والكبير (أي عيسو) يُستعبد للصغير (أي يعقوب) (تك٢٥: ٢٣) .

إن أخوة يوسف لم يكونوا فقط ضد يوسف ، بل كانوا بالأكثر ضد الله . ولم يضعوا الله أمامهم ولم يؤمنوا أنه قادر على تنفيذ مشيئته مهما فعلوا بأخيهم ، ومهما تحايلوا.

غير أن رأوبين أخاهم حاول أن ينقذ يوسف . فقال لهم "لا نقتله .. لا تسفكوا دماً . اطرحوه في هذه البئر التي في البرية .. وكان يفكر أن ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه" (تك٣٧: ٢١، ٢٢) .

ضمير نقي ضعيف

رأوبين كان هنا يمثل هنا القلب النقي ، ولكنه ضعيف .

على الرغم من أن رأوبين كانت له أخطاؤه الأخرى ، إلا أنه هنا لم يكن موافقاً لأخوته على جريمة القتل . وكان في قلبه حنو نحو أخيه، ووفاء نحو أبيه. ولكن لم تكن له القوة التي بها يصرح بذلك، ولا القوة التي يقول بها لأخوته إنهم مخطئون . على الرغم من أنه كان البكر ، وله بذلك سيطرة على أخوته . ولكنه كان أضعف من أن يقول الحق، وأضعف من أن يدافع عن يوسف .

كان ضعيفاً مع أن الموقف كان سهلاً .

كانوا أحد عشر أخاً (لأن بنيامين الصغير لم يكن بينهم) . ويبدو أن يهوذا أيضاً كان رافضاً لعملية القتل ، كما ظهر فيما بعد بقوله "ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفى دمه؟! تعالوا فنبيعه للإسماعيليين . ولا تكن أيدينا عليه ، لأنه أخونا ولحمنا . فسمع له أخوته" (تك٣٧: ٢٦، ٢٧) . فلو أن رأوبين رفض قتل يوسف، ومعه يهوذا، وطبعاً يوسف، تصبح هناك ثلاثة آراء ضد ثمانية . وكان ممكناً إقناع إثنين آخرين ، وتكون الآراء مناصفة تقريباً.. وعلى أية الأمور كانوا سيخافون من إنكشاف جريمتهم، حتى لو كان رأوبين وحده ضدهم أو رأوبين ومعه يهوذا .

وهكذا كان رأوبين يمثل الحق الضعيف ، والمتناقض . ويمثل الحلول المتوسطة غير الروحية .

لأنه إن كان قتل يوسف خطية ، فإن إلقاءه فى البئر خطية أيضاً، وربما تؤدى أيضاً إلى موته فى البرية ، إن لم يجد فرصة لإنقاذه. وأيضاً موت يوسف ربما يؤدى إلى حزن أبيه وموته . وعلى الأقل فقدان بركته . إن رأوبين يقدم حلاً متوسطاً ضعيفاً ، ليست فيه قوة الحق ، ولا قوة الصدق ، ولا قوة البر ، فلو مات يوسف فى البئر (مع أنها كانت فارغة) يكون قد وصل معهم إلى غرضهم . ولو خرج يوسف حياً وأخبر أباه تكون فضيحة لهم .. على أية الحالات ، وافقوه على رأيه . وخلعوا عن يوسف قميصه الملون وألقوه فى البئر (تك٣٧: ٢٣، ٢٤) .

" ألقوا يوسف فى البئر وجلسوا ليأكلوا طعاماً " .

لست أدرى بأى ضمير جلسوا ليأكلوا ، وأخوهم فى البئر؟! بل لعلهم كانوا مسرورين بما فعلوه !! أما رأوبين فكان قد تركهم إلى حين . وهذه كانت نقطة ضعف أخرى فيه، إذ كيف يترك الغلام فى أيدى من يبغضونه .

ضمائر ضالة رخيصة

وفى غيبة رأوبين باعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة، فأتى الإسماعيليون به إلى مصر .

بعشرين من الفضة ؟ توزع على عشرة أخوة : أى أن كل واحد منهم يأخذ قطعتين فقط مقابل بيع أخيه!! قطعة تقلقه نهاراً ، وقطعة تؤرقه ليلاً!! ويكون ماذا قد انتفع ؟

وكيف يوازن بين ضميره وثمنه؟! حقاً ما أرخص الإنسان ؟! ما أرخص البائع والمباع ؟!

إن الشيطان حينما يجد ضمير الإنسان رخيصاً ، يمكن أن يشتريه بأتفه الأثمان. هكذا كان ضمير يهوذا رخيصاً فباع سيده بثلاثين من الفضة، وكان ضمير أخوة يوسف رخيصاً، فباعوا أخاهم بعشرين من الفضة !!

وهل هذا كان ثمن من قالوا عنه إنه أخونا لحمنا (تك٣٧: ٢٧)؟!

أقصى ما وصلوا إليه من الرحمة والحنو، أنهم باعوه بدلاً من أن يقتلوه . كانت هذه هى مقاييس الرحمة عندهم . وكان هذا هو معنى الأخوة عندهم، حينما قالوا عن أخيهم إنه لحمنا!! هل هذا هو ثمنه ومعاملته ؟!

فكروا أن يستبدلوا خطية كبيرة بخطية صغيرة .

أو ما يعتبرونها صغيرة فى نظرهم ، أن يباع أخوهم كعبد ، ويصير عبداً عند من يشتريه فاقداً لحريته !! وبدأوا بهذه تجارة للرقيق! بل أن ضميرهم قد استراح إنهم فعلوا خيراً ! ولم يفكروا مطلقاً ماذا سيكون مصير يوسف بعد هذا: أين سيعيش ، ومع من؟ وكيف يكون مصيره؟

يوسف فى التجربة

أما يوسف فكان صامتاً خلال كل ذلك . ولم يقاوم الشر حسب وصية السيد المسيح بعد ذلك (مت٥: ٣٩) .

خلعوا عنه قميصه وألقوه فى البئر . وترك نفسه فريسة فى أيديهم . لم يقاوم ولم يناقش . كان "كشاه تساق إلى الذبح ، وكنعجة صامتة أمام جازيها . لم يفتح فاه" (أش٥٣: ٧) . ولما باعوه أيضاً، ظل صامتاً ولم يقاوم. وعلى رأى أحد القديسين ، حينما سأل بعض الأخوة "من باع يوسف؟" فأجابوا "باعه أخوته" . فأجاب "كلا . بل باعه تواضعه. لأنه لو قال أنا أخوهم" ما كان قد بيع ..."

يوسف يمثل الشخص الذى لا يدافع عن نفسه .

لم يدافع عن نفسه أمام أخوته، لما نزعوا قميصه ، ولما ألقوه فى البئر ، ولما باعوه كعبد . ولم يدافع عن نفسه أمام فوطيفار لما ألقاه فى السجن ، وقد اتهمته المرأة ظلماً . بل فى كل ذلك ترك الله لكى يدافع عنه . كما قال موسى فيما بعد "الرب يقاتل عنكم، وأنتم تصمتون" (خر١٤: ١٤) . وفعلاً دافع الرب عنه ...

نتائج الخطية

وبعد بيع يوسف عاد رأوبين ، ولم يجد يوسف فى البئر، فمزق ثيابه وقال "وأنا إلى أين أذهب؟" (تك٣٧: ٢٩، ٣٠) .

استيقظ أخيراً ضميره الضعيف . ورأى أن تفكيره البشرى لم ينفعه فى إنقاذ أخيه . فبأى وجه سيقابل أباه ، وهو البكر المسئول عن قيادة أخوته فى غيبة أبيهم . إلى أين يذهب إذن ؟ كيف سيواجه أباه . ماذا يقول له ؟ هوذا خطيتهم نحو أخيهم قد تمت . وها هم يواجهون نتيجتها ، أو إحدى نتائجها .

إن تمزيق رأوبين لثيابه ، يذكرنا بغسل بيلاطس ليديه !

وذلك حينما غسل يديه وقال عن السيد المسيح "أنا برئ من دم هذا البار " .. لم يكن بريئاً. وتمزيق الثياب كان يتم فى الأمور الخطيرة جداً . مثلما مزق عزرا ثيابه لما رأى شعب الله قد خان خيانة وتزوج بالأجنبيات اللائى يقدنه بعيداً عن الله (عز٩: ٣) . ومزق رئيس الكهنة ثيابه ، لما اعتبر كلام المسيح تجديفاً حينما اعترف أنه ابن الله" (مت٢٦: ٦٣ - ٦٥) .

ولكن ماذا ينتفع رأوبين بتمزيق ثيابه ؟! لابد من حل عملى .

وهنا اشترك معهم فى خطية أخرى يغطون بها خطيتهم فى بيع يوسف .

فعملوا على أن يخدعوا أباهم : أخذوا قميص يوسف الملون . وذبحوا تيساً من الماعز، وغمسوا القميص فى الدم. وأحضروه إلى أبيهم . وقالوا له "وجدنا هذا. حقق أقميص إبنك أم لا. فتحقق وقال: هو قميص إبنى . وحش ردئ قد قتله . افترس يوسف افتراساً.." (تك٣٧: ٣١- ٣٣) .

إن كثيرن إذا وقعوا فى خطية ، تقودهم إلى التورط فى خطايا أخرى .

وهكذا وقع أخوة يوسف فى الكذب وخديعة أبيهم . وبهذا بعدما تخلصوا من يوسف تخلصوا من قميصه الملون الذى كان يثير حسدهم . ولم تنكشف خديعتهم لأبيهم يعقوب ، الذى سبق من قبل وخدع أباه اسحق، حينما ألبسته أمه رفقه شبه قميص من جلد الماعز (تك٢٧: ١٦) .

مشاعر الأب

"مزق يعقوب ثيابه ، ووضع مسحاً على حقويه . وناح على إبنه أياماً كثيرة . فقام

جميع بنيه ليعزوه . فأبى أن يتعزى.." (تك٣٧: ٣٤، ٣٥) .

لاشك أن أبانا يعقوب فكّر فى قلبه أنه كان السبب فى موت إبنه يوسف .. وكيف أنه أرسله فى البرية وحده ليفتقد اخوته ، وهو فتى صغير فى السابعة عشرة من عمره ، وليس فى السن الذى يحمل هذه المسئولية الكبيرة، بينما أخوته الكبار قد تأخروا فى المجئ. فإن كان الكبار فى خطورة، فكم بالأولى أخوهم الأصغر منهم .. لذلك ناح على إبنه، وأبى أن يتعزى ..

نسى يعقوب أحلام يوسف التى فيها سيسجد أخوته له . وفى نسيانه صدّق أن يوسف قد مات وافترسه وحش ردئ ، فبكى ومزق ثيابه . ومن قبل كان أبوه اسحق قد نسى وعد الله لرفقة أن إبنها الكبير سيستعبد للصغير (أى يعقوب) . فوعد بمباركة عيسو بدلاً من يعقوب . ولما تذكر قال: نعم، وليكن مباركاً" (تك٢٧: ٤، ٣٣) .

العجيب أن ابناء يعقوب جاءوا ليعزوه فى موت يوسف .

بأى كلام جاءوا ليعزوه ، وهم الذين تسببوا فى كل حزنه وبكائه ، وهم الذين دبروا الخديعة ، ويعرفون تماماً أن يوسف حىّ فى عبوديته ولم يمت حتى يعزوا أباه فيه . لاشك أنه ينطبق عليهم المثل القائل "يقتل القتيل ويمشى فى جنازته" .. أى أنهم تسببوا فى حزن أبيهم، وجاءوا يعزونه فى حزنه!! وهكذا أضافوا إلى خطاياهم الكثيرة السابقة خطيئة الرياء ...

التدبير الإلهى

وفيما كانوا يفعلون هذا الشر كله ، كان الرب يدبر الخير ليوسف .

وقد لخص يوسف هذه القصة فى قوله لأخوته فيما بعد "أنتم قصدتم لى شراً. أما الله فقصد به خيراً .. ليحيى شعباً كثيراً (تك٥٠: ٢٠) .

إن الله كان يريد أن يجعل يوسف متسلطاً على كل أرض مصر ، يدبر أمورها أثناء المجاعة لإحياء أهلها والشعوب المحيطة. ولكن يوسف كان فتى صغيراً مدللاً محبوباً من أبيه، محسوداً من أخوته. فأراد الرب أن يدربه بالتجارب حتى يصلح لتلك المسئولية التى أعدها له .. وهكذا سمح الله أن يفعل أخوة يوسف به كل ما فعلوه ، إذ أصبح ذلك جزءاً من الخطة الإلهية التى أعدّها لتدريب يوسف .

يوسف رمز المسيح

وكان يوسف فى كثير من هذه الأمور رمزاً للسيد المسيح .

يوسف كان محبوباً من أبيه ، والمسيح قال عنه الآب : **هذا هو إبنى الحبيب الذى به سررت** (مت٣) . يوسف ذهب لافتقاد سلامة اخوته . والسيد المسيح جاء لخلاص العالم . يوسف جاء لأخوته فلم يقبلوه ، وقالوا هلّم نقتله . والمسيح جاء إلى خاصته ، وخاصته لم تقبله بل أسلموه للقتل . يوسف خانه أخوته وباعوه بعشرين من الفضة . والمسيح خانه تلميذه وأسلمه بثلاثين من الفضة. يوسف صار عبداً . والمسيح أخذ شكل العبد (فى٢: ٧). يوسف خرج من كل ذلك منتصراً ممجداً . والسيد المسيح صعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب " .

فوائد روحية

نستفيد من مؤامرات أخوة يوسف ضده دروساً كثيرة نذكر من بينها ٣ نقاط :

١ - حياة الإنسان هى فى يد الله ، وليست فى يد الناس .

لا يهمنا ما يدبره الناس لنا ، إنما ما يريده الله لنا .

لم يكن المهم بالنسبة إلى يوسف مشاعر أخوته من نحوه ، وما يدبرونه ضده من مؤامرات . لقد حسدوه ، وأبغضوه ، وأرادوا قتله، وألقوه فى البئر، وباعوه كعبد . ولكن كل ذلك لم يؤثر على مصير حياته . ذلك لأن الله كان يريد الخير له . وهكذا أنت ، آمن بأن حياتك فى يد الله، وثق أنه "لن يقع بك أحد ليؤذيك " (أع١٨: ١٠) .

٢ - درس آخر : هو أننا لا تتعبنا البداية المؤلمة . المهم هو النهاية السعيدة .

وكما قال الكتاب "نهاية أمر خير من بدايته" (جا٧: ٨) .

كانت البداية بالنسبة إلى يوسف تآمر أخوته عليه، وبيعه كعبد ، واتهام ظالم من إمرأة فوطيفار ، وإلقاؤه فى السجن لمدة طويلة. أما النهاية فكانت سعيدة . خرج من السجن إلى القصر ، وصار أباً لفرعون ومتسلطاً على كل أرض مصر " (تك٤٥: ٨) .

٣ - ما حدث ليوسف كان بركة له ، وتأديباً لأبيه .

فكما خدع أباه اسحق، خدعه أولاده. وكان هذا تأديباً له، إذ بقى نائحاً. وكانت أيام غربته على الأرض قليلة وردية" (تك٤٧: ٩) .

يوسُف الصدّيق
فى بيت فوطيفار وفى السجن

يوسف فى بيت فوطيفار

أخذ يوسف إلى مصر ، عبداً فى بيت فوطيفار رئيس الشرطة. وهنا يقول الكتاب :
"وكان الرب مع يوسف" (تك٣٩: ٢) .

ولعلك تسأل : كيف كان الرب معه ، وقد أصابه ما أصابه، وقد ترك الرب أخوة يوسف يفعلون به ما فعلوه حتى صار عبداً. ونفس هذا الأمر تعجب منه جدعون ، حينما قال له ملاك الرب "الرب معك يا جبار البأس .." فأجاب جدعون "أسألك يا سيدى: إذا كان الرب معنا، فكيف أصابتنا كل هذه (البلايا) ؟! وأين كل عجائبه التى أخبرنا بها آباؤنا؟! (قض٦: ١٢، ١٣) .

أما الإجابة على مثل هذا التعجب ، فهى :

إن الرب لم يمنع التجارب عن يوسف، إنما كان معه فيها.

لم يخرجه منها ، وإنما حفظه داخلها .

كان الرب معه ، حينما فكّر أخوته فى قتله . لم يمنع عنه تآمرهم، بل حفظه من القتل، فتحول إلى الإلقاء فى البئر . وكان معه فى البئر ، فأخرجوه منها وباعوه

للإسماعيليين . وكان معه إذ باعه الإسماعيليون إلى فوطيفار ، لأن خيراً كثيراً كان ينتظره هناك.. فيقول الكتاب :

البركة

"بارك الله فى بيت فوطيفار ، من أجل يوسف" .

"وكانت بركة الرب على كل ما كان له فى البيت وفى الحقل" (تك٣٩: ٥). وهكذا عندما دخل يوسف بيت فوطيفار ، دخلت البركة بيت فوطيفار . وهذا ما اعتدنا أن نقرأه فى سير القديسين. إذ كانت حياتهم بركة لغيرهم . بل كانوا هم أنفسهم بركة حيثما حلوا. كما قال الله لأبينا ابراهيم : "أباركك .. وتكون بركة" (تك١٢: ٢). بنفس المنطق نقول إن إيليا النبى كان بركة فى بيت أرملة صرفة صيدا، وملأ الخير بيتها أثناء المجاعة (١مل١٧: ١٥، ١٦). وكان أليشع النبى بركة فى بيت المرأة الشونمية . وبسببه أعطاها الله إبناً، واقام الإبن من الموت (٢مل ٤) .

ولكن كيف ولماذا كان يوسف بركة فى بيت فوطيفار ؟ يقول الكتاب :

"ورأى سيده أن الرب معه، وأن كل ما يصنع كان الرب ينجحه" (تك٣٩: ٣) .

إنها بركة من الله أن يجعل أولاده ناجحين فى كل شئ. ويكون كل منهم حسبما ورد فى المزمور الأول "وكل ما يعمله ينجح فيه" (مز١: ٣). كذلك يليق بأولاد الله أن يعرفوا ويعترفوا أن الله هو سبب نجاحهم . هو الذى ينجحهم ، وليس ذكاؤهم أو قدرتهم أو خبرتهم ...

وماذا كانت نتيجة إنجاح الرب ليوسف . يقول الكتاب إن يوسف وجد نعمة فى عينى سيده "فوكّله على كل بيته وعلى كل ما كان له" (تك٣٩: ٤) .

أى أن يوسف لم يصبح مجرد عبد ، بل صار الوكيل المتسلط على كل شئ .

إذن الله لم يمنع عنه التجربة التى جعلته عبداً. ولكن داخل التجربة جعله سيداً وهو عبد! أما سيده فقد "ترك كل ما كان له فى يد يوسف. ولم يكن معه يعرف شيئاً إلا الخبز الذى يأكل" (تك٣٩: ٦).. وطبعاً لم يشعر يوسف مطلقاً بذل العبودية التى يشعر بها عبيد آخرون. لأنه صار وكيلاً لا عبداً ...

إنه درس لنا : أننا لا نفكر فى الوضع الذى نحن فيه، مادام الرب معنا فى هذا الوضع .

دانيال النبى أيضاً ، كان أحد أسرى الحرب فى بابل فى قصر نبوخذنصر الملك. ولكن الله كان معه . ومع ذلك جاء الوقت الذى حدث فيه أن "نبوخذ نصر خرّ على وجهه وسجد لدانيال.." (دا٢: ٤٦). ونال دانيال كرامة بعد أن أخرجوه من جب الأسود. "ونجح فى مُلك داريوس وفى مُلك كورش الفارسى" (دا٦: ٢٨) . ونفس الوضع بالنسبة إلى نحميا الذى كان أيضاً أسير حرب وساقياً فى قصر الملك أرتحشستا. ونال نعمة فى عينيه فساعده على بناء أسوار أورشليم (نح٢) . وبصورة مشابهة تقريباً ، كان يوسف عبداً ذا كرامة فى بيت فوطيفار .

يوسف العفيف

ولكن وسط هذه الكرامة ، حسده الشيطان ، وبدأ يعمل ...

نعم ، إن وجدت نفسك فى راحة ، احترس من حسد الشياطين . فالشيطان لم يسترح حينما وجد يوسف فى راحة . وبدأ يحيك له تجربة لم يتعرض لها يوسف من قبل . كان يوسف شاباً فى عنفوان شبابه . حينما ألقاه أخوته فى البئر كان عمره ١٧ سنة تقريباً (تك٣٧: ٢). وعندما حدثت له التجربة فى بيت فوطيفار كان فى العشرين أو العشرينات من عمره "وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر" (تك٣٩: ٦) . وهنا بدأ الشيطان يحيك له الشباك من جهة إمرأة فوطيفار خصى فرعون (تك٣٩: ١) .

"وحدث أن إمرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف" (تك٣٩: ٧)

بدأت تشتهيه وتطلب منه الخطية ، وتلح فى ذلك . وتكلمه يوماً فيوماً .. ولم يسمع لها" (تك٣٩: ١٠) . وهنا كانت نقاوة يوسف درساً لجميع الأجيال .. إن الشهوة قد تكون صعبة المقاومة فى هذه السن . وحينما يسعى هو إليها ، يحتاج إلى جهاد نفسه . ولكن حينما تسعى الشهوة إليه ، وتلح عليه ، تكون المقاومة أصعب ...

أما يوسف فقد حفظ عفته وطهارته ، ولم يلتمس لنفسه الأعذار فى الخطأ ...

وما أكثر الأعذار: المرأة هى سيدته ولها سلطان عليه، ويمكن أن تسبب له مشاكل وأضراراً إذا رفضها وشعرت أن كرامتها قد أهينت. ومع ذلك فقد رفض، ولكنها ألحت عليه يوماً فيوماً. فاعتذر أولاً بوفائه نحو زوجها الذى هو سيده. وقال لها "هوذا سيدى لا يعرف معى ما فى البيت. وكل ما له قد دفعه إلى يدى. ليس هو فى هذا البيت أعظم منى. ولم يمسك عنى شيئاً غيرك، لأنك إمرأته. فكيف أصنع هذا الشر العظيم..؟!" (تك٣٩: ٨، ٩).

ولكن المرأة لم تأبه بحق زوجها على يوسف، ولا بحق زوجها عليهـا، واستمرت فـى إلحاحها . وهنا ارتفع يوسف إلى مستوى أعلى فى الحوار ، وهو حق الله . فقال :

"كيف أصنع هذا الشر العظيم ، وأخطئ إلى الله " (تك٣٩: ٩)

ذلـــك الثــوب

نظمت هذه القصيدة

فى سنة ١٩٤٦

ألعل هذه الأفكار كانت تجول بذهن يوسف ، أو تتواثب على شفتيه، وقد أمسكت سيدته بثوبه ...

هــــوذا الثـــــوب خذيـــــهِ ... إن قلبـــــى ليــــس فيـــــهِ

أنــــــا لا أملــــــك هــــــذا ... الثـــــوب بــــــل لا أدعيـــــه

هــــو مــــن مـــــالك أنـــــت ... لـــــــك أن تســــــــترجعيه

فــــــانزعى الثـــــــوب إذا شـــــــئت وإن شـــــــئت اتركيــــــــه

إنمــــــا قلبـــــى لقـــــــد ... أقســـــــمت ألا تدخليــــــــه

أنـــــــا لا أملـــــــك قلبـــــــى ... وكـــــــذا لـــــــن تملكيــــــه

إنـــــــه ملـــــــك لربـــــــى ... وقـــــــد اســـــــتودعنيه

عبثـــــاً قربـــــك منـــــه ... هـــــوذا قلبـــــى أســــألـيه

۞ ۞ ۞

زوجـــــــك الغــــــائب قــــــد أعهدنـــــــى مـــــــالاً وعِرضـــــــاً

بـــــل وقـــــد ملكنـــــى فـــــى ... بيتـــــه طـــــولاً وعَرضـــــا

إنـــــــه عهــــــد وثيــــــق ... كيــــف أهــــوى فيــــه نقضـــا

وإذا مــــــا كنـــــــت خـــــــؤناً ... نـــــا أخـــون العهـــد فرضـــا

كيــــف أعصـــــى اللـــــه ربـــــى ... وبهــــذا الشـــــر أرضـــــى

ناســـــياً عقلـــــى ودينـــــى ... طارحــــاً تقــــواى أرضـــا

فـــــابعدى عنـــــى دعينـــــى ... إن أخلاقــــــك مرضـــــــى

أى فخــــر لـــــك فـــــى ثـــــو ... بـــــى وقـــــد أخلعتنيـــــه

هـــــوذا الثـــــوب خذيـــــه ... إن قلبـــــى ليـــــس فيـــــه

۞ ۞ ۞

آه لـــــو تدريـــــن مـــــا أعلـــــم عـــــن آبـــــرام جـــــدى

قصـــة الطاعـــة والمــــذ بـــح والابـــن المعـــد

طاعـــة غنـــى بهـــا العـــا لـــم مـــن عهـــد لعهـــد

طاعـــة أورثتهـــا قـــد أصبحـــت عنـــوان مجـــدى

طاعـــة للـــه لا للشـــر إن الشـــر يـــردى

۞ ۞ ۞

طاعـــة للـــروح لا للجســـم أن الجســـم عبـــدى

ســـأطيع اللـــه حتـــى لـــو أطعـــت اللـــه وحـــدى

كيـــف أعصـــى اللـــه منقـــا دأ لـــذا الشـــر الكريـــه

هـــوذا الثـــوب خذيـــه إن قلبـــى ليـــس فيـــه

۞ ۞ ۞

هذا هو يوسف البار الذى فى طهارة قلبه وعفة جسده إرتفع فوق مستوى الخطية ، وقال عبارته الخالدة : **"كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟!" (تك٣٩: ٩).**

اعتبر أن الخطية موجهة أصلاً إلى الله، وليست فقط ضد إمرأة فوطيفار، ولا ضد زوجها. وهذا هو المستوى العالى فى الروحيات، الذى عرفه داود بعد سقوطه. فقال للرب فى مزمور التوبة "إليك وحدك أخطأت. والشر قدامك صنعت" (مز٥٠: ٤). أما يوسف فقد كانت هذه الحقيقة أمامه قبل السقوط، فمنعته عن السقوط. فاعتبر الخطية شراً عظيماً، واعتبرها موجهة إلى الله .

كان هذا الشاب البتول أكثر عفة من داود الذى كانت له ثمانى زوجات!!

كانت الطهارة التى فى قلبه ، أقوى من الإغراء الذى يحاربه من الخارج. وقد عرف بضميره النقى أن الزنى شر عظيم، قبل أن يسلّم الله لوحى الشريعة إلى موسى النبى ، وفيها الوصية السابعة "لا تزن" (خر٢٠: ١٤) . لقد نفذ الوصية قبل أن تكتب فى التوراة بمئات السنين . وكان فى ذلك شاهداً على الشريعة الطبيعية، شريعة الضمير النقى التى سبقت الشريعة المكتوبة بآلاف السنين ...

دفع ثمن برّه

لقد فضّل يوسف نقاوة القلب والجسد ، مهما تكون النتائج ، أو نقول :

فضّل أن يكون أميناً لله ، ولو ألقى فى السجن !

فضّل العار والسمعة الرديئة ، والإتهام الظالم الذى اتهمته به إمرأة فوطيفار، عن أن يخطئ إلى الله .. فضّل أن يفقد محبة سيده، الذى وكّله على كل بيته، والذى كان يثق أن يد الله معه، وكان يعتقد أنه بركة لبيته ...!

من أجل أن يستمر طاهراً، فقد مركزه ، وفقد سمعته ، وفقد حريته .. فقد الراحة والغنى ، وألقى فى السجن ...

حقاً إن البرّ له ثمن يدفعه الأبرار .

ولم يكن يوسف مجرد درس فى الطهارة والعفة، بل هو أيضاً درس فى اتباع الموقف السليم، مهما كانت النتائج صعبة . ومثله كان يوحنا المعمدان، حينما قال لهيرودس "لا يحلّ لك أن تأخذ إمرأة أخيك.." (مت١٤: ٤)، ولو كانت النتيجة قطع رأسه .

الغريب أن تلك المرأة الفاسدة ، أخذت موقف المعتدى عليها!!

لما أمسكته من ثوبه ، فترك ثوبه فى يدها وهرب، "نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: أنظروا. قد جاء إلينا برجل عبرانى ليداعبنا. دخل إلىّ ليضطجع معى، فصرخت بصوت عظيم. وكان لما سمع أنى رفعت صوتى وصرخت، أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج"!! ولما رجع زوجها إلى بيته، كلمته بنفس الكلام (تك٣٩: ١٣- ١٨)!

وانطبق عليها المثل القائل "ضربنى وبكى، وسبق فاشتكى"!

حاولت اغراءه فلم تستطع . فأرادت أن تنتقم منه من جهة، وتغطى خطيتها من جهة أخرى. وهكذا أضافت إلى فسادها الظلم والقسوة والكذب والرياء .. وما أكثر ما تعرض بعض القديسين لمثل هذا الإتهام .. مثال ذلك القديس مقاريوس الكبير، والقديس افرام السريانى .. حقاً إن الباطل له طرقه وحيله وقوته !!

وبدا أن الباطل قد انتصر على الحق، من جهة فوطيفار أيضاً.

نعم ، من العناصر المؤلمة فى هذه المأساة : أن فوطيفار لم يفحص الأمر . لم يحقق، لم يدقق ، لم يسأل يوسف عما حدث. بل صدّق كلام إمرأته . ولم يذكر بركة يوسف السابقة وأمانته، وكيف أن الله كان معه. وكانت أذنا فوطيفار أكثر تأثيراً عليه من عقله . وهنا يقول الكتاب :

"فحمى غضبه .. وأخذ يوسف ووضعه فى بيت السجن" (تك٣٩: ١٩، ٢٠) .

إنه رئيس شرطة فرعون (تك٣٩: ١)، فى مركز كبير يماثل وزيراً للداخلية، أو مديراً

للأمن العام. له سلطان أن يُلقى فى السجن.. "وضع يوسف فى المكان الذى كان أسرى الملك محبوسين فيه" .

ولم يدافع يوسف عن نفسه . وللمرة الثانية كان "كشاةٍ تساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازيها ، فلم يفتح فاه" (أش٥٣: ٧) ...

بل ربما كان احتقار سيده له ، أقسى عليه من السجن الذى يدخله ! إحتقاره له كشاب فاسد، خان الأمانة والثقة ، وتجرأ على إمرأة سيده الذى أحسن إليه !!

يوسف فى السجن

ألقاه رئيس الشرطة في السجن . وتصوروا سجيناً موصى عليه من رئيس الشرطة، ومتهماً بأنه حاول أن يدنس شرف زوجة رئيس الشرطة!! مثل هذا كيف تكون معاملته فى السجن ؟! أترى كان يجول فى ذهنه وقتذاك ، أهذه عاقبة الطهارة والعفة؟! وأين حماية الله له ؟!

والعجيب أنه بعد إلقائه فى السجن ، يقول الكتاب :

"وكان الرب مع يوسف ، وبسط إليه لطفاً" (تك٣٩: ٢١) .

وربما يتساءل البعض منا فى عجب : أى لطف هذا يارب ، الذى تحمل فيه يوسف الإتهام الظالم ، والسمعة الرديئة ، والسجن، مع الطرد من وظيفته ؟ وكأنى بالله المحب يهمس فى قلب يوسف

"لا يهم أين توجد . المهم أن أكون معك حيثما توجد .

إن دخلت السجن ، فأنا فيه معك: أرعاك واحفظك ، وأبسط لك لطفاً . وكأنى بيوسف الوديع يجيب : مبارك أنت يارب . أنا بالإيمان مطمئن لرعايتك. ليس فقط داخل السجن، بل أيضاً "إن سرت فى وادى ظل الموت، لا أخاف شراً ، لأنك أنت معى" (مز٢٣) .

إن الحرية خارج السجن، هى السجن الحقيقى، إن كنت لست معى وأنا معك، إن كنت قد أطعت تلك المرأة وبعدت عنك. أما السمعة الرديئة التى ألصقوها بى، وما يقوله بيت فوطيفار عنى، فكلها أمور لا تهمنى . لأن كل ما يهمنى هو ما تقوله أنت يارب عنى ...

وفعلاً عاش يوسف في السجن فى وضع ممتاز وعجيب، ربما لم يتمتع به سجين من قبل . وفى ذلك يقول الكتاب :

"ولكن الرب كان مع يوسف ، وبسط إليه لطفاً . وجعل نعمة له فى عينى رئيس بيت

السجن . فدفع رئيس بيت السجن إلى يوسف جميع الأسرى الذين فى بيت السجن . وكل ما كانوا يعملون هناك، كان هو العامل . ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئاً البتة مما فى يده. لأن الرب كان معه . ومهما صنع كان الرب ينجحه " (تك٣٩: ٢١- ٢٣) .

الله معه فى السجن

وكما كان يوسف فى بيت فوطيفار، هو العبد المتسلط على كل شئ .. هكذا صار فى بيت السجن، هو السجين المتسلط على كل شئ ...

وكما كان فوطيفار قد ترك كل شئ فى يديه ، هكذا أيضاً رئيس بيت السجن قد ترك كل شئ فى يديه . وكما كان فى بيت فوطيفار، كل ما يعمله ينجح فيه، هكذا كان فى بيت السجن كل ما يعمله ينجح فيه . والسبب فى كل ذلك أن الرب كان معه . وسنرى نفس الوضع حينما يلتقى بفرعون : سيترك فرعون أيضاً كل شئ فى يديه . وأيضاً كل ما يعمله سينجح فيه ...

لم يكن يوسف السجين الوحيد، الذى كان الرب معه فى سجنه ...

كان القديس بولس الرسول سجيناً ، وكان يصلى ويسبح الله فى سجنه. وقد نجاه الله من السجن (أع١٦: ٢٥، ٢٦) . وقد كتب كثيراً من رسائله فى السجن ...

وإن كان بولس الرسول قد كتب بعض رسائله في السجن. ورسائله أملاها عليه الروح القدس الناطق فى الأنبياء ، إذن روح الله كان معه فى السجن .

وكان القديس بطرس الرسول سجيناً . وكان مطمئناً جداً، لدرجة أنه نام نوماً ثقيلاً . حتى أن الملاك الذى انقذه ، ضربه فى جنبه ليوقظه (أع١٢: ٦، ٧).

وكان القديس يوحنا الرسول منفياً فى جزيرة بطمس. وكان الله معه. ورأى فى منفاه عرش الله وملائكته، وكشف له الرب فى المنفى أشياء كثيرة .

إن أولاد الله لا يخافون السجون ، لأنها لا تسجن أرواحهم . لأن أرواحهم تكون مع الله ، يعزيها الله فى سجنهم .

حياة يوسف الصديق كانت فيها آلام . وكانت فيها أيضاً تعزيات، وكان فيها عمل الله معه . والسجن كان هو الطريق الذى تعرف فيه يوسف على رئيس سقاة فرعون الذى كان معه فى السجن ، وعن طريقه تعرف على فرعون الذى أحبه وجعله متسلطاً على كل أرض مصر . فكيف حدث هذا ؟!

يوسف والأحلام

كان يوسف الصديق رجل أحلام، وكان أيضاً مفسراً للأحلام.

أحلامه كانت بدء مشكلته مع أخوته حتى أنهم لما رأوه قادماً لافتقادهم – في بدء تآمرهم عليه – قالوا "هوذا صاحب الأحلام قادم. فالآن هلم نقتله .. فنرى ماذا تكون أحلامه!" (تك٣٧: ١٩، ٢٠) . وفعلاً كانت أحلامه من الله، وقد تحققت ...

أحلام من الله

والكتاب المقدس يرينا أن هناك أحلاماً كثيرة من الله .

في مشكلة أبينا ابراهيم ، لما قال عن سارة إنها أخته ، وأخذها ابيمالك، يقول الكتاب "فجاء الله في حلم الليل . وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها، فإنها متزوجة ببعل .." (تك٢٠: ٣).. "وقال له الله في الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا... فالآن ردّ إمرأة الرجل، فإنه نبي فيصلي لأجلك فتحيا" (تك٢٠: ٦، ٧).

وفي (تك٢٨: ١٢) أثناء هرب أبينا يعقوب من وجه أخيه عيسو، قيل عنه إنه "رأى حلماً. وإذا سلّم منصوبة على الأرض، ورأسها يمس السماء. وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها. وهوذا الرب واقف عليها فقال ... "

ونلاحظ في هذين الحلمين ، أن الله كلّم أبيمالك في حلم، وأنه كلّم يعقوب في حلم. وتحقق ما قيل في الحلمين .

وفي (تك٣١: ١٠– ١٣) نرى أن الله قد كلم يعقوب في حلم بخصوص الفحول المخططة والرقطاء . وفي نهايته قال له "أنا إله بيت إيل، حيث مسحت عموداً، حيث نذرت لي نذراً. الآن قم وأخرج من هذه الأرض، وارجع إلى أرض ميلادك" .

وفى نفس الإصحاح ، لما أراد لابان أن يؤذى يعقوب، ظهر الله للابان فى حلم الليل لينذره . وفى هذا يقول الكتاب "وأتى الله إلى لابان الأرامى فى حلم الليل. وقال له : احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو بشر" (تك٣١: ٢٤) .

والسيد الرب قد صرح بأنه كان يكلم البعض فى الأحلام . فلما انتقد هارون ومريم أخاهما موسى. قال لهما الله مفضلاً موسى عليهما "إن كان منكم نبى للرب، فبالرؤيا استعلن له ، فى الحلم أكلّمه. وأما عبدى موسى فليس هكذا: بل هو أمين فى كل بيتى . فماً إلى فمٍ وعياناً أتكلم معه" (عد١٢: ٦- ٨) .

نعلم أيضاً أن الله كلّم سليمان فى حلم ، إذ يقول الكتاب إنه "فى جبعون تراءى الرب لسليمان فى حلم ليلاً . وقال له : اسأل ماذا أعطيك.." (١مل٣: ٥) . فطلب سليمان الفهم والحكمة ...

وسفر دانيال النبى يعطينا فكرة عن أحلام نبوخذ نصر الملك التى فسّرها له دانيال النبى (دا٢، ٤) . بل الأحلام التى رآها دانيال نفسه كما ورد فى (دا٧، ٨) وغيرها، كانت وكلها من الله .

وسفر يوئيل النبى يعتبر هذه الأحلام من مواهب الله ومن عطايا الروح القدس، فيقول: "ويكون بعد ذلك أنى أسكب روحى على كل بشر. فيتنبأ بنوكم وبناتكم . ويحلم شيوخكم أحلاماً ، ويرى شبابكم رؤى" (يوئيل٢: ٢٨) .

وفى العهد الجديد نقرأ عن أحلام يوسف النجار التى هى وحى من الله: "ملاك الرب قد ظهر فى حلم قائلاً : يا يوسف بن داود، لا تخف أن تأخذ مريم إمرأتك. لأن الذى حبل به فيها هو من الروح القدس" (مت١: ٢٠). كذلك "ملاك الرب ظهر ليوسف فى حلم قائلاً: قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر" (مت٢: ١٣) ثم "إذا ملاك الرب قد ظهر فى حلم ليوسف فى مصر قائلاً : قم وخذ الصبى وأذهب إلى أرض إسرائيل ، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى" (مت٢: ١٩، ٢٠) .

نقرأ أيضاً عن المجوس أنهم "إذ أوحى إليهم فى حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس، انصرفوا فى طريق أخرى إلى كورتهم " (مت٢: ١٢) .

نعرف أيضاً أن زوجة بيلاطس البنطى أرسلت إليه أثناء محاكمته للسيد المسيح "قائلة: إياك وذلك البار، لأنى تألمت كثيراً جداً فى حلم من أجله " (مت٢٧: ١٩) .

كل هذه وغيرها أحلام من الله ، لها هدف إلهى .

ولكن ليس معنى هذا أن كل الأحلام من الله ، وأنها تتحقق!

أحلام ليست من الله

هناك أحلام كثيرة ليست من الله : أحلام من أمور مترسبة فى العقل الباطن . وأحلام من حالة الجسد أثناء النوم. وأحلام من الشياطين . وفى بستان الرهبان أمثلة كثيرة من الأحلام التى ليست من الله، ومن التى يراد بها تضليل من يسير وراءها ...

وقد قيل فى سفر زكريا النبى لأن الترافيم قد تكلموا بالباطل. والعرافون رأوا الكذب وأخبروا بأحلام كذب" (زك١٠: ٢).

والرب نفسه أوصى من جهة تلك الأحلام المضللة قائلاً: "إذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلماً، وأعطاك آية أو أعجوبة، ولو حدثت تلك الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها، قائلاً لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها. فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم. لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ..." (تث١٣: ١- ٣) .

أما عن ذلك الحالم حلماً، فيقول الرب فى نفس الإصحاح: "وذلك النبى أو الحالم حلماً ، يُقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم.. فتنزعون الشر من بينكم" (تث١٣: ٥) .

يوحنا الدرجى (كليماكوس) يحذر أيضاً من الأحلام الكاذبة .

يوسف والأحلام

ما حلم به يوسف كان من الله . كان نبوءة . وقد تحققت .

حلم يوسف أن حزم أخوته سجدت لحزمته . فقال له اخوته "ألعلك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً؟!" (تك٣٧: ٨) . لم يصدقوا الحلم، ولم يعتبروه من الله. إنما إزدادوا بغضاً ليوسف.

ولما حلم أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة له، لم يصدق أخوته هذا الحلم، ولم يعترفوا أنه من الله، بل حسدوا يوسف .

كان الحلمان رسالة من الله. لكنهم لم يتقبلوها . بل قاوموها!

وهكذا فكروا أن يقتلوا يوسف، باعتباره صاحب الأحلام (تك٣٧: ١٩، ٢٠). أما أبوه فحفظ الأمر (تك٣٧: ١١) . ولكن عندما أخبره ابناؤه بأمر القميص الملون الملطخ بالدم،

وقالوا له "حقّق أهو قميص إبنك. تحققه وقال "قميص إبنى هو. وحش ردئ أكلـه. افترس يوسف افتراساً . ومزق ثيابه ولبس مسحاً وناح على إبنـه (تك٣٧: ٣٢- ٣٤) . ورفض أن يتعزى . وقال إنى أنزل إلى إبنى نائحاً إلى الهاوية ...

لقد نسى يعقوب حلمى يوسف وقتذاك . أما الله فاستمر يذكرهما .

هل يوسف أيضاً كان قد نسى الحلمين ، حينما بيع كعبد، وحينما ألقى فى السجن ظلماً وطالت مدته فيه؟! أم اعتبرهما مجرد حلمين لا علاقة لهما بالواقع !!

حينما باعه أخوته كان عمره ١٧ سنة (تك٣٧: ٢) . "وكان يوسف إبن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر" (تك٤١: ٤٦)... أى أنه قضى ١٣ سنة فـى العبودية وفـى السجن .

فهل أنسته الـ١٣ سنة وعود الله فى الحلمين ؟

كل ما طلبه من رئيس السقاه زميلـه المسجون معـه فى بيت السـجن أن يذكـره أمـام فرعون ليخرجوه من بيت السجن الذى وضعوه فيه ظلماً، قـائلاً لـه "تصنـع إلـىّ إحسـاناً ، وتذكرنى لفرعون، وتخرجنى من هذا البيت ، لأنى .. لم أفعل شيئاً حتـى وضعونـى فـى السجن" (تك٤٠: ١٤، ١٥). ولأن يوسف طلب هنا معونة بشرية، قيل فى الرد عليها :

"ولكن لم يذكر رئيس السقاه يوسف، بل نسيه" (تك٤٠: ٢٣).

ربما يوسف أرهقته سنوات الألـم الثـلاث عشـرة، فضعـف أمامهـا وطلـب مـن رئيس السقاة أن يذكره أمام فرعون . لذلك لم يذكره رئيس السقاة. ولكن الملائكـة كـانت بلاشـك تذكره أمام الله. وإن كان رئيس السقاة تذكره بعد سنتين (تـك٤١: ١) فـى مناسـبة أعدهـا الله بنفسه، بحيث يكون لها تأثيرها . فكيف كان ذلك؟

خطـة اللـه الحكيمَـة

كـانت خطـة اللـه أن يجعل يوسـف متسلطاً علـى كل أرض مصـر. وأن يـأتى إخـوة يوسف ويسجدوا لـه ، حسب وعده فى الحلم .

ولكى يحدث هذا، كان لابد أن يتعرف فرعون على يوسف ويثـق بـه ويجعلـه ثانيـاً لـه فى المملكة . ولكى يحدث هذا، أرسل الله إلى فرعـون أحلامـاً ، وأعطـى يوسـف موهبة لتفسيرها. ولكى يرسل فرعون طالباً يوسف، سـمح اللـه ليوسـف أن يفسر حلمين لاثنين يخدمان فرعون: أحدهما رئيس سقاته وثانيهمـا رئيس خبازيـه . وقـد دبـر اللـه أن يكـون

يوسف زميلاً لهما فى السجن . ولكى يدخل يوسف السجن ويلتقى بهما سمح اللـه أن تكيد ليوسف زوجة فوطيفار رئيس الشرطة . ولكى يتمكن يوسف من لقاء هـذه المرأة ، سمح الله أن يُباع يوسف عبداً لفوطيفار . ولكى يُباع يوسف، سمح الله لأخوة يوسف أن يتآمروا ضده . وكسبب للتآمر أرسل اللـه أحلاماً ليوسف حسده بها أخوته، وفكروا أن يقتلوه، ثم خففوا الأمر فباعوه كعبد ...

وهكذا اجتاز يوسف فى ضيقات كثيرة ، بدأت بأحلامه، وانتهت بتفسيره لأحلام فرعون . وكانت هذه الضيقات هى الوسيلة التى أدت إلى تمجيد يوسف .

يوسف مفسّر الأحلام

لاشك أنها موهبة من الله ليوسف. وقد نسبها يوسف إلى الله

★عندما حلم رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، كل منهما حلماً ولم يجد من يعبره (أى يفسره) . "قال لهما يوسف: أليست لله التعابير؟ قصّا علىّ" (تك٤٠: ٨) . فلم ينسب لنفسه المعرفة أو القدرة على تفسير الأحلام. إنما قال إنها لله .

★وكان صريحاً صادقاً فى تفسيره .

قال لرئيس السقاة " إنها ثلاثة أيام، ويردك فرعون إلى مقامك، فتعطى كأس فرعون فى يده كالعادة الأولى حينما كنت ساقيه" (تك٤٠: ١٣). "فلما رأى رئيس الخبازين أن يوسف قد عبر جيداً" أى أتى لرئيس السقايين بخبر طيب، قصّ عليه أيضاً حلمه، ظاناً أنه سيسمع نفس البشرى . ولكن يوسف لم يجامله، بل كلمه بصراحة قائلاً "فى ثلاثة أيام أيضاً ، يرفع فرعون رأسك عنك، ويعلقك على خشبة، وتأكل الطيور لحمك عنك" (تك٤٠: ١٩) .. وقد كان .

ولما حلم فرعون حلمين : أحدهما السبع بقرات السمينات التى أكلتها السبع بقرات الهزيلات . والثانى السبع سنابل الممتلئة التى ابتلعتها السبع سنابل الرقيقة الملفوحة .. ولم يستطع كل سحرة مصر وحكمائها تفسير الحلمين . حينئذ تذكر رئيس السقاة يوسف، وقص خبره على فرعون ، فاستدعاه فرعون .

ونجد أن إسم الله استمر على لسان يوسف، فى حديثه مع فرعون. ونسب لله تفسير الحلمين ، خمس مرات .

★لما قال له فرعون "أنا سمعت عنك قولاً إنك تسمع أحلاماً لتعبّرها" أجاب يوسف

فرعون قائلاً "ليس لى. الله يجيب بسلامة فرعون" (تك٤١: ١٦) .

★ولما قص عليه فرعون الحلمين . قال له : "حلم فرعون واحد. قد أخبر الله فرعون بما هو صانع" (تك٤١: ٢٥) . وفسّر حلم البقرات .

★وتفسيره لحلم السنابل ، كرر نفس العبارة "قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع" (تك٤١: ٢٨) ... فأرجع كل ما سيأتى فى المستقبل إلى تدبير الله . أما تفسير الحلم فهو ما اراد الله أن يظهره لفرعون . وهكذا اختفى يوسف، لكى يظهر الله فى الصورة أمام فرعون .

★أما عن تكرار الحلم مرتين بنفس المعنى . فقد قال عنه يوسف "لأن الأمر مقرر من قبل الله . والله مسرع ليصنعه" (تك٤١: ٣٢) .

★ولم يكتفِ يوسف بتفسير الحلمين، بل قدّم أيضاً النصيحة لفرعون فيما ينبغى أن يعمله ، من جهة أن يبحث عن رجل بصير وحكيم يجعله على أرض مصر: ليخزن فى سنى الرخاء ما يصبح ذخيرة فى سنى الجوع (تك٤١: ٣٣- ٣٦) .

★وتكرار إسم الله ٥ مرات فى حديث يوسف مع فرعون، جعل إسم الله يكون أيضاً على لسان فرعون، فقال لعبيده عن يوسف "هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله! ثم قال ليوسف "بعد ما أعلمك الله كل هذا، ليس بصير وحكيم مثلك" (تك٤١: ٣٨، ٣٩). وسلّمه كل السلطة فى مصر .

إنقلب الهوان مجداً

وذلك بأن تحول يوسف السجين إلى ملك على كل مصر ... وقال له فرعون "بدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر" "أنظر قد جعلتك على كل أرض مصر" "وخلع فرعون خاتمه من يده، وجعله فى يد يوسف . وألبسه ثياب بوص، وجعل طوق ذهب فى عنقه . وأركبه فى مركبته الثانية . ونادوا أمامه اركعوا. وجعله على كل أرض مصر" (تك٤١: ٤٣) . ولعل من الذين ركعوا له، فوطيفار سيده الأول !

كل ما كان يريده يوسف أن يخرج من السجن . وما كان يحلم بكل هذا . ولكن الله الكريم فى عطائه ، أعطاه ما لم يطلب ...

كيف إلتقى يوسف مع إخوته وأبيه

كان فى خطة الله، أن ينقذ يوسف من كل متاعبه. ولكننا نلاحظ فى كل أحداث القصة أن الله يسمح بأن تأتى التجربة، ثم ينقذ منها بالطريقة الإلهية فى الوقت المناسب .

عمل الله فى الوقت المناسب

طلب يوسف من رئيس السقاة أن يذكره أمام فرعون ليخرجه من بيت السجن (تك٤٠: ١٤) . ولكن رئيس السقاه "نسيه" (تك٤٠: ٢٣) . واستمر نسيانه لمدة سنتين .. والعجيب أن هذا النسيان كان فى صالح يوسف .. إلى أن أرسل الله حلمين لفرعون . وجمع فرعون كل الحكماء والسحرة ، فلم يستطيعوا تفسير الحلمين . وهنا تذكر رئيس السقاة يوسف الصديق ، وقصّ على فرعون حكمة يوسف فى تفسير الأحلام. وكان ذلك بتدبير إلهى لكى يرفع شأن يوسف ويعوضه عن أيام التعب .

وهنا نرى حكمة الله فى العمل فى الوقت المناسب .

★لو أن رئيس السقاة ذكر يوسف أمام فرعون ، حالما رجع إلى منصبه، كان أقصى ما يصل إليه يوسف أن يخرج من السجن ، ثم لا يعلم إلى أين يذهب بعد ذلك .

★كذلك لو أن فوطيفار لم يصدق إمرأته فى إتهامها الكاذب ليوسف، وقال لها إن هذا الشاب إنسان مبارك .. ولو أنه حقق فى الأمر جيداً واتضحت له براءة يوسف، لكانت النتيجة هى بقاء يوسف عبداً أميناً فى بيت فوطيفار ! وما كان قد أصبح الثانى فى المملكة: يركع الكل أمامه ، ومن ضمنهم فوطيفار طبعاً . "وبدونه لا يرفع إنسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر" (تك٤٠: ٤٤) . وطبعاً فوطيفار أصبح كالباقين لا يرفع يده ولا رجله إلا بأمر يوسف .

★كذلك أخوة يوسف : لو أن الله أنقذه من أيديهم وقتذاك، فلم يلقوه في البئر، ولم يبيعوه كعبد .. لبقي يوسف طول عمره مجرد راعٍ للغنم .

لذلك فإن تمنيات الإنسان شئ .. وما يعده الله له أعظم بكثير مما يتمنى، ولو عن طريق التجارب والمتاعب .

إن الله قد يسمح للخطاة أن يرتكبوا كل ما يشاءون ضد أولاده. ويبدو كما لو كان الله ساكتاً لا يعمل..!! أو كما شكا داود قائلاً للرب في المزمور "لماذا تقف بعيداً ؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق؟!" (مز ١٠: ١) ... ولكن في نفس الوقت الذي يظن فيه الإنسان المجرب أن الله بعيد عنه، يكون الله يدبر كل شئ في صالحه. وكما قال الرسول "كل الأشياء تعمل معاً للخير، للذين يحبون الله" (رو٨: ٢٨) .

يوسف وشهادته لله

وكما أن الله لم يتخلَ عن يوسف، كذلك يوسف لم يتخلَ عن الله .

ظل متمسكاً بالرب في كل المتاعب التي أصابته. وظل ثابتاً على إيمانه . وكان إسم الله على شفتيه في كل حديثه مع فرعون . لقد ذكر إسم الله أكثر من مرة أمامه (تك٤١: ١٦، ٢٥، ٢٨، ٣٢).. قال هذا وهو يعرف أن فرعون يعبد رع وآمون وأيزيس وأوزوريس وفتاح وغيرهم .. لكنه لم يقل أمامه سوى إسم الله (ألوهيم ويهوه) . على عكس أولئك الذين لا يذكرون إسم الله أمام الذين يعبدون غيره إما خجلاً أو خوفاً أو ضعفاً. لعل هذا يذكرنا بقول داود النبي للرب :

"تكلمت بشهاداتك قدام الملوك ولم أخز" (مز ١١٩) .

أما الإنسان المخلص لإلهه ، إسم الله على لسانه أمام الكل .. هكذا كان يوسف . ونرى أن يوسف فيما بعد : لما رزقه الله بابنين، دعا إسم البكر منسى قائلاً : لأن الله أنساني كل تعبي.." . فلم ينسَ إسم الله في تسمية إبنه البكر . وكذلك بالنسبة إلى إبنه الثاني، دعاه افرايم قائلاً لأن الله جعلني مثمراً في أرض مذلتي" (تك٤١: ٥١، ٥٢) . ذلك لأن معنى كلمة (إفرايم) هو الثمر المضاعف .

هناك أشخاص إذا حلت بهم المشاكل أو المتاعب يتذمرون على الله أو يجدفون عليه، أو يشكون قائلين : لماذا يفعل الله بنا هكذا؟ وأين هي رحمته؟! وأين استجابة الصلوات؟! أما يوسف ، وكذلك أيوب الصديق، لم يفعل أحد منهما هكذا ...

يوسف المدبر

يوسف لم يفسر فقط الحلمين لفرعون ، بل قدم له الحل أيضاً.

لم يكن مثل الكثيرين الذين يتحدثون عن المشاكل، دون أن يساهموا فى ذكر الحلول. وكان الحل الذى قدمه حلاً عملياً وحكيماً، أعجب به فرعون ، واعترف أن يوسف "رجل فيه روح الله" وأيضاً "بصير وحكيم" . لذلك منحه كل السلطات لكى يقوم بنفسه بهذا الحل. فقام بذلك وأنقذ الشعب من المجاعة .

كان يوسف أميناً فى عمله ومدبراً حكيماً .

كان أنجح وزير تموين فى كل تاريخ مصر .

كان مدبراً ميدانياً . لا يجلس على مكتب ويصدر الأوامر. إنما كان ينزل إلى ميدان العمل ويشتغل . كان يخزن القمح بنفسه . وكان يبيع أحياناً بنفسه . لقد أعطانا مثالاً عملياً عن رجل العمل الناجح .

قد يظن البعض أن الديانة مجرد صوم وصلاة وباقى أمور العبادة . أما يوسف فقدم لنا النموذج للديانة المخلصة فى العمل ، سواء فى عمله مع فوطيفار، أو مع فرعون . وهكذا نفذ بكل دقة وبكل نجاح الخطة التى وضعها لإنقاذ مصر من المجاعة ، بل إنقاذ كل البلاد المحيطة أيضاً. فأخوته أتوه من بلاد أخرى ...

بقية قصة يوسف مع أخوته. كيف قابلهم؟ وكيف تصرف معهم ؟

يوسف مع إخوته

البلاد المجاورة جاعت هى أيضاً . فقال يعقوب لأبنائه "قد سمعت أنه يوجد قمح فى مصر . انزلوا إلى هناك، واشتروا لنا من هناك قمحاً ولا نموت" (تك٤٢: ١) .

"فأتى اخوة يوسف ، وسجدوا بوجوههم إلى الأرض" (تك٤٢: ٦) .

سجدوا كما كان يسجد الباقون أيضاً له .. بل سجدوا له بعد ذلك مرات عديدة . وتحققت أحلام يوسف التى هزأوا بها من قبل، حينما رأوه مقبلاً لافتقادهم وهو شاب "فقالوا بعضهم لبعض : هوذا صاحب الأحلام قادم . فالآن هلم نقتله .. فنرى ماذا تكون أحلامه" (تك٣٧: ١٨- ٢٠) .. أتريدون أن تعلموا ماذا تكون أحلامه؟ إنها أحلام من الله، وها هى قد تحققت .

لقد عوضه الله عن آلامه ، بتحقيق أحلامه ...

أما يوسف فكان – فى لقائه باخوته – يدبر خطة معينة، يستطيع بها أن يلتقى أيضاً بأبيه ، وبأخيه الشقيق بنيامين الذى احتجزه أبوه معه فلم يحضر مع أخوته . لو أنه أعطاهم القمح بسهولة ورحلوا، ما كانت ستتحقق خطته. لذلك "تنكر لهم وتكلم معهم بجفاء" حتى يصل إلى ما يريده .

جفاء يقودهم إلى التوبة

وهنا نلاحظ ثلاث نقاط :

الأولى إنه عرفهم، أما هم فلم يعرفوه (تك٤٢: ٨) . كما إنه من سؤاله لهم عرف أنهم من أرض كنعان، وأن لهم أخاً مفقوداً ، وأخاً صغيراً يحبه أبوه ...

أما النقطة الثانية ، فهى أنه كان يتحدث معهم عن طريق "ترجمان كان بينهم" (تك٤٢: ٢٣) . كان يكلمهم بالهيروغليفية التى تعلمها وهو فى مصر ، وما كانوا هم يعرفونها . أما هم فكانوا يتكلمون بالعبرانية التى يعرفها ، ولا يظنون مطلقاً أنه يعرفها . فكانت أحاديثهم الخاصة مكشوفة كلها أمامه ، من حيث لا يعلمون .

أما النقطة الثالثة فهى أنه كان يتصرف بجفاء من الخارج، بينما كان قلبه داخله مملوء حباً .. وكان يتأثر أحياناً من مذلتهم، ويبكى .

كان يقسو على أخوته ظاهرياً . بينما لم تكن القسوة من طبعه . وهذه القسوة الظاهرية هى التى قادتهم إلى إدراك خطاياهم السابقة والندم عليها .

حتى أنه حينما قال لهم "جواسيس أنتم. جئتم لتكتشفوا الأرض.. أحضروا أخاكم الصغير إلىّ فيتحقق كلامكم" (تك٤٢: ٩- ٢٠) .. حينئذ قالوا بعضهم لبعض :

"حقاً إننا مذنبون إلى أخينا، الذى رأينا ضيقة نفسه، لما استرحمنا ولم نسمع. لذلك جاءت علينا هذه الضيقة" "وأجابهم رأوبين قائلاً : ألم أكلمكم قائلاً : لا تأثموا بالولد ، وأنتم لم تسمعوا، فهوذا دمه يطلب" (تك٤٢: ٢١- ٢٣) .

"فتحول يوسف عنهم ، وبكى" (تك٤٢: ٢٣) . هكذا كان قلبه الرقيق الحساس ، على الرغم من كلامه معهم بجفاء ..

كان بكاؤه حباً وتأثراً .. إنه لم يبكِ حينما ألقى فى البئر ، وحينما بيع عبداً . ولم يبكِ حينما أتهم ظلماً، والقى فى السجن بدون تحقيق، وطالت مدته فى السجن .. لكنه بكى

حينما رأى اخوته مذلولين قدامـه ..! حقاً إنـه هو الذى أذلهم . ولكنـه فى الداخل كـان عطوفاً عليهم ويقودهم إلى التوبة .

أخوته لم يتمكن أبوهم من تربيتهم كما ينبغى ،

فتولى يوسف تربيتهم . ونجح فى ذلك .

كان يسوّيهم على نار هادئة ، وهادفة... ولمعرفته بطباعهم وخبرته بهم، كان يرى أنه لو سلك معهم بـاللين على طول الخط، لن يصل إلـى نتيجة معهم. وقد لا يرى أخـاه بنيامين، ولا يرى أباه أيضاً.. ولكنه فى حكمة استطاع أن يذكّرهم بصـورة مـا فعلوه من قبل.. أولئك الذين بكل استهانة ألقوه فى البئر، وجلسوا يأكلون ويتكلمون..! (تك٣٧: ٢٤، ٢٥) .

وهكذا أخذ شمعون ، وقيده أمام أعينهم (تك٤٢: ٢٤) . ولكن لماذا شمعون بالذات؟

ربما لأنه كان أعنفهم. هذا الذى اشترك من قبل مع أخيـه لاوى، فـى قتل أهل شكيم ظلماً، بعد أن اختتنوا جميعاً طبقاً للاتفاق (تك٣٤: ٢٥- ٢٩) . وهكذا أن أباه يعقـوب فـى بركته الأخيرة لأولاده قبل وفاته، قـال "شـمعون ولاوى أخـوان. آلات ظلـم سيوفهما. فـى مجلسـهما لا تدخل نفسـى. بمجمعهمـا لا تتحد كرامتـى .. ملعون غضبهمـا فإنـه شـديد، وسخطهما فإنه قاسٍ" (تك٤٩: ٥- ٧) ...

لذلك أمر يوسف بتقييد شمعون أمام اخوته، ليريهم أن العنيف الذى فيهم، هوذا ضعيف وذليل أمامه . لكى يخفض كبرياءهم ، ولكى يخيفهم فلا يتمردون عليه ...

كان قلبه يذوب اشتياقاً لرؤية شقيقه بنيامين . ولذلك قال لهم :

ليتحقق أن كلامكم صدق، اذهبوا واحضروا أخاكم الصغير (تك٤٢: ١٥، ١٦) .

فى الأول أمر بحبسهم جميعاً ، وواحد منهم يذهـب لإحضـار الأخ الصـغير. ثم تحنن عليهم وقال: "فليحبس واحد منكم. وانطلقوا أنتم، وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم . واحضـروا أخاكم الصغير إلىّ. فيتحقق كلامكـم ولا تموتـوا" (تك٤٢: ١٩، ٢٠) . بهذا أعـرف أنكم أمناء، ولستم جواسيس (تك٤٢: ٣٤). ففعلوا هكذا وأخبروا أباهم بكل ما حدث "وإذ كـانوا يفرغون عدالهم، إذا صرة كـل واحد فـى عدلـه" (تـك٤٢: ٣٥) .. هـذا مـا كـان قد فعله يوسف.. فخافوا .

ما كانوا يعرفون الحب ، لذلك قادهم يوسف بواسطة الخوف .

ورفض أبوهم أن يرسل بنيامين معهم. وقال لهم : أعدمتمونى الأولاد. يوسف مفقود،

وشمعون مفقود. وبنيامين تريدون أن تأخذوه!! وتعهد رأوبين باعادته إليه، وقال لأبيه: اقتل ابني ، إن لم أجئ به إليك . ورفض يعقوب . ولكن لما اشتد الجوع في الأرض، عاد أبوهم يرسلهم إلى مصر. وأصروا على أخذ بنيامين معهم . وقال يهوذا "أنا أضمنه . من يدي تطلبه . إن لم أجئ به إليك.. أصر مذنباً لك كل الأيام... ورضخ يعقوب أخيراً . وسلّم بنيامين مع هدية ثمينة يقدمونها للرجل . وقال لهم "خذوا فضة أخرى في أياديكم . والفضة المردودة في أفواه عدالكم، ردوها . لعله كان سهواً" (تك٤٣: ١٢) .

عادوا إلى يوسف . وسلموه الهدية . وسجدوا إلى الأرض. سألهم عن أبيهم "أسالم أبوكم الشيخ الذي قلتم عنه ؟ أحيّ هو بعد". وسجدوا (تك٤٣: ٢٦- ٢٨) .

كانوا قد أعادوا الفضة، ولما أروه بنيامين، كان اللقاء طيباً ، وأجلسهم ليأكلوا على مائدته . أجلسهم على المائدة بترتيب أعمارهم. فاندهشوا لذلك .

يوسف ، لما رأى أخاه بنيامين ، استعجل لأن أحشاءه حنت إلى أخيه. فطلب مكاناً ليبكي . ودخل مخدعه وبكى هناك (تك٤٣: ٣٠) .

في الواقع لا نجد في سفر التكوين كله إنساناً كثير البكاء والتأثر ، مثل يوسف الصديق.. على أنه بعد أن بكى، غسل وجهه، وتجلد، وجلس معهم وأكل .

وكان قد أعطى لبنيامين من حصص الطعام أضعاف ما أعطاهم

وأمر لهم يوسف بقمح أخذوه في عدالهم ، وصرفهم وبنيامين معهم .

ولكن القصة لم تكن قد تمت فصولاً . **بقي التأديب الأخير لهم، والإعتراف منهم . والإذلال ، وشرح القصة كلها ...**

حيلة أخرى دبرها يوسف . قبل أن يصرفهم ، كان قد وضع كأسه في أمتعة بنيامين . وبعد انصرافهم ارسل وراءهم من يفتشهم. فتعجبوا من إتهامهم بسرقة شئ بعد أن أعادوا الفضة من قبل .. وقالوا : من يوجد معه شئ يموت، ونحن نصير عبيداً لسيدي. ولما وُجد كأس يوسف في أمتعة بنيامين، مزقوا ثيابهم ... واقتيدوا إلى بيت يوسف . ووقعوا أمامه على الأرض، فوبخهم على (سرقتهم!) .

التوبة والمذلة

فقال له يهوذا : ماذا نقول لسيدي ؟ وبماذا نتبرر؟! الله قد وجد إثم عبيدك ...

طلبوا أن يكونوا كلهم عبيداً ليوسف، ولكنه قال: الذي وُجد الطاس عنده هو يصير لي

عبدا . وأما أنتم فارجعوا إلى أبيكم ... وهنا وقف يهوذا متذللاً بكل أنواع التذلل، يكلم يوسف بكلام مؤثر جداً "استمع يا سيدى. ليتكلم عبدك كلمة فى أذنى سيدى، ولا يحم غضبك على عبدك.." ثم شرح ما حدث لهم مع أبيهم .

"قال لنا عبدك أبى: أنتم تعلمون أن إمرأتى ولدت لى إثنين. فخرج الواحد من عندى، وقلت إنما هو قد أفترس افتراساً، ولم أنظره إلى الآن . فإذا أخذتم هذا أيضاً من أمام وجهى وأصابته أذية، تنزلون شيبتى بشرٍ إلى الهاوية" (تك٤٤: ٢٧- ٢٩) .

وشدّد يهوذا على هذه النبرة المؤثرة ، وهى موت أبيهم فى حزن إن لم يرجع بنيامين ..

قال : إننا لا نقدر أن ننظر وجه الرجل، وأخونا الصغير ليس معنا .. فالآن متى جئت إلى عبدك أبى، والغلام ليس معنا، ونفسه مرتبطة بنفسه، يكون متى رأى أن الغلام مفقود، أنه يموت. فينزل عبيدك شيبة عبدك أبينا بحزن إلى الهاوية . لأن عبدك ضمن الغلام" .

"فالآن ليمكث عبدك عبداً لسيدى، وليصعد الغلام مع أخوته. لأنى كيف أصعد إلى أبى، والغلام ليس معى ، لئلا أنظر الشرّ الذى يصيب أبى" (تك٤٤: ٣٠- ٣٤) .

كلام مؤثر ، ومن القلب ، وفيه وفاء للأب ، وحزن على ما يحدث لهذا الأب الذى يحبه يوسف، لأنه أبوه. حينئذ لم يستطع يوسف أن يضبط نفسه، فأطلق صوته بالبكاء، وعرّف أخوته بنفسه .

يوسف يظهر ذاته

كان قد أوصلهم إلى التوبة والمذلة . ولم يعد هناك مجال آخر للمعاملة الجافة . كما أنه تأثر جداً من خوفهم على أبيه . وحسناً أن الله أوصلهم إلى هذا الوضع المنسحق الذليل. مع أنهم كانوا فى هذا الموقف أبرياء، وقد وقعوا تحت ما شعروا به ظلماً . فتذكروا كيف كان يوسف بريئاً ، وقد وقع تحت ظلم منهم . وحسناً قالوا ليوسف "الله قد وجد إثم عبيدك".. ومتى وجده ؟ بعد حوالى عشرين سنة ...

إن الخطية لا تُمحى بالمدة ، وإنما تُمحى بالتوبة .

فلما وصلوا إلى هذه المذلة، واعترفوا بخطيتهم واستحقاقهم للعقوبة، انفتح أمامهم باب المغفرة . حينئذ بكى أخوهم الذى اساءوا إليه . وصرخ وقال لهم أنا يوسف . أحىّ أبى بعد ؟ فخافوا منه . فقال لهم : لا تتأسفوا إذ بعتمونى إلى هنا . لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى

الله قدامكم ...

لستم أنتم أرسلتموني إلى هنا ، بل الله .

وهو قد جعلني أباً لفرعون ، وسيداً لكل بيته ، ومتسلطاً على كل أرض مصر .

اسرعوا واصعدوا إلى أبي .." (تك٤٥: ١- ٩).

"ثم وقع يوسف على عنق أخيه بنيامين وبكى. وبكى بنيامين على عنقه" . ويبدو أن هذا أمر طبيعي، لأنه شقيقه ويحبه. ولم يكن قد اشترك معهم في اساءتهم إليه .. لكن العجيب هو أن الكتاب يقول عن يوسف "وقبل جميع أخوته وبكى عليهم" (تك٤٥: ١٥) .

إن وصية "احبوا أعداءكم .. احسنوا إلى مبغضيكم" التي قالها السيد المسيح على الجبل، نفذها يوسف قبل أن يقولها الرب بحوالي ألفي عام .

وأيضاً نفذ وصية العفة ، قبل أن يكتب الله الوصية في اللوح من لوحي الشريعة السابعة (لا تزن) في أيام موسى النبي .

كان ضميره حياً ، ينفذ وصايا الله بطبيعته النقية ، قبل الشريعة المكتوبة .

كان مستواه الروحي أعلى من عصره .

يوسف الصديق مع يعقوب أبيه

شوقه إلى أبيه

انتهت فترة التأديب الذى أدّب بها يوسف أخوته . وأوصلهم إلى تذكرهم خطاياهم، والشعور بأنهم يستحقون كل ما صدر منه ضدهم، لا عن خطية حالية، إنما عن خطايا سابقة (تك٣٧) .

ولم يكن يوسف يريد أن يعاقبهم ، إنما كانت حيلة منه يصل بها إلى رؤية أخيه وشقيقه بنيامين، وأيضاً لكى يرى أباه يعقوب.

فلما رأى أخاه بنيامين ، وأشبع عاطفته من هذه الناحية، وأكرمه أكثر من جميعهم، بقى أن يحقق الرغبة الأخرى، وهى أن يرى أباه... فلما عرّفهم بنفسه، كانت أول عبارة قالها لهم هى "أحىّ أبى بعد؟" (تك٤٥: ٣) .. سألهم هذا السؤال على الرغم من أنهم قالوا له قبلاً إن لهم أباً شيخاً ، وأنهم يخافون عليه من الموت إن لم يرجع إليه ابنه الصغير بنيامين" (تك٤٤: ٣٠، ٣١) ...

ولكنها اللهفة فى أن يرى أباه، جعلته يسأل : أحىّ أبى بعد؟ وأيضاً لمزيد من التأكد.

ولاشك أنه حينما تحدث يوسف مع أخوته ، وكشف لهم ذاته قائلاً "أنا أخوكم يوسف الذى بعتموه" (تك٤٥: ٣) ، إنما كلمهم حينذاك بلغتهم العبرانية ، لكى يتأكدوا من كلامه . وواضح ذلك لأنه لم يكن بينه وبينهم مترجم وقتذاك . لأنه قبل أن يكشف نفسه لهم، صرخ قائلاً : أخرجوا كل إنسان عنى. "فلم يقف أحد عنده، حين عرّف يوسف أخوته بنفسه " (تك٤٥: ١) .

كان قد تغير

كان يوسف قد تغير فى الشكل والسن واللغة والملبس .

لذلك فى كل لقاءاته معهم لم يعرفوه . حينما باعوه كان عمره ١٧ سنة (تك٣٧: ١، ١٣، ١٨) . وحينما تقابل مع فرعون كان عمره ٣٠ سنة (تك٤١: ٤٧) . وبعد سنوات الشبع السبع، أتت سنوات الجوع. فى السنة الثانية منها، جاء إخوته إليه يطلبون قمحاً . بدليل أنه قال لهم لما عرّفهم بنفسه "يكون أيضاً خمس سنين جوعاً" (تك٤٥: ١١) .

إذن كان عمر يوسف وقتذاك ٣٩ سنة . وقد مضت ٢٢ سنة منذ ألقوه فى البئر .

ملابسه كانت أيضاً ملابس فرعونية . شكله تبدو عليه الهيبة . الناس يركعون أمامه ويسجدون عند قدميه . لغته هيروغليفية ، وهناك من يترجم بينه وبينهم . كلامه معهم كلام بسلطان . لذلك لم يعرفوه حتى كشف نفسه لهم . ولم يفعل ذلك إلا بعد أن تأكد من معلوماتهم التى قالوها له إنهم أخوته . كما فهم نفس الحقيقة من أحاديثهم بعضهم مع بعض. وما كانوا يدركون أنه يفهم ما يقولون.

فلما قال لهم : أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه .. ارتاعوا .

ظنوا أن وقت انتقامه قد أتى . وبخاصة لأنه لم يقل لهم فقط "أنا يوسف.." وإنما قال أيضاً "يوسف أخوكم الذى بعتموه .." . وها هم فى يديه يفعل بهم ما يشاء .. ولكن يوسف كان فى خلقه أنبل من أن ينتقم .. كان يدرك أنهم فى حالة ضعف وذعر ، وليس لديهم ما يجيبونه به . كما قال الكتاب "فلم يستطع أخوته أن يجيبوه ، لأنهم ارتاعوا منه" (تك٤٥: ٣) .. نعم ارتاعوا من هذا الصغير الذى كانوا يهزأون به من قبل ..!

ولكن يوسف – فى نبل خلقه – طمأنهم . وأراهم مشيئة الله فى كل ما حدث ...

نعم، الله الذى يحوّل الشر إلى خير. "ومن الجافى يُخرج حلاوة" (قض١٤: ١٤).. هو الله الذى وضع يوسف حياته فى يديه. ورأى أن كل ما يصيبه، هو بسماح من الله لخيره

ولذلك طمأن أخوته قائلاً لهم "والآن لستم أنتم أرسلتمونى إلى هنا، بل الله" " لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتمونى إلى هنا. لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى الله قدامكم . لأن للجوع فى الأرض سنتين . وخمس سنين أيضاً لا تكون فيها فلاحة ولا حصاد . فقد أرسلنى الله قدامكم ، ليجعل لكم بقية فى الأرض" (تك٤٥: ٥– ٨) .

وهكذا ثلاث مرات كرر عبارة "أرسلنى الله" .

يوسف لم يذكر ما في تجربته من ألم ، إنما ذكر ما فيها من تدبير إلهي ، وما فيها من خير له ولهم وللناس . فإنها "لاستبقاء حياة" .. بالحكمة التي وهبها له الله لانقاذ حياة الناس خلال سني المجاعة، سواء في مصر أو أهله في كنعان .. أما من جهته هو ، فقال: الله جعلني أباً لفرعون ، وسيداً لكل بيته، ومتسلطاً على كل مصر" (تك٤٥: ٨) .

وبعد أن طمأنهم ، ونزع الخوف من قلوبهم ، كلمهم من جهة أبيه وإحضاره إليه في مصر .. فقال لهم :

"أسرعوا واصعدوا إلى أبي.. وتستعجلون وتنزلون بأبي إلى هنا" (تك٤٥: ٩، ١٣).

وفاء يوسف لأبيه

حمّل يوسف أخوته رسالة إلى أبيه قائلاً له : "انزل إليّ لا تقف " .

"تسكن في أرض جاسان ، وتكون قريباً مني أنت وبنوك وبنو بنيك" . "أعولك هناك، لأنه يكون أيضاً خمس سنين جوعاً " . "لئلا تفتقر أنت وبيتك" (تك٤٥: ٩- ١١) .

إذن لم يأتِ بأبيه لمجرد اشتياقه إليه فقط، إنما أيضاً لكي يعوله وكل بيته .

ويعول أيضاً أخوته الذين باعوه ، وكل بنيهم ...

ولم يجعل ذلك مجرد قرار فردي منه، عرضة للدسائس والتغيير، وإنما أخبر فرعون بكل شئ . وأخذ أمراً من فرعون أن يذهب أخوته لإحضار أبيهم، فيعطيهم خيرات أرض مصر ويأكلون من دسم الأرض .. بل أيضاً أمر آخر لهم "خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم، وأحملوا أباكم وتعالوا .." (تك٤٥: ١٧- ١٩) .

وكان يوسف كريماً جداً مع أخوته وأبيه :

أرسل معهم مركبات تحملهم . وأعطاهم زاداً للطريق ، وحلل ثياب حتى يكون مظهرهم لائقاً . وأرسل معهم دواباً تحمل لأبيه حنطة وخبزاً، وتحمل من خيرات مصر . وقال لأخوته "لا تتغاضبوا في الطريق (تك٤٥: ٢١- ٢٤) .. كان يعرف هذا الطبع فيهم. فقدّم لهم نصيحة روحية، إلى جوار ما قدّمه لهم من خيرات مادية .

لم يكن يوسف مثل الذين يتجاهلون أهلهم الفقراء ، إذ صار لهم منصب كبير .

في كل ما وصل إليه من عظمة ، لم ينسَ أباه الراعي، الذي كان شبه ضرير وقد ثقلت عيناه من الشيخوخة (تك٤٨: ١٠) . أراد أن يفرح أباه في شيخوخته ، ويعوضه عن سني التعب والألم التي مرّ بها ... وما كان أبهج الخبر الذي نقله إليه أولاده ، حينما

رجعوا بالمركبات من مصر، قائلين له :

"يوسف حيّ بعد ، وهو متسلط على كل أرض مصر" (تك٤٥: ٢٦) .

يوسف الذى رأى يعقوب قميصه الملون ملطخاً بالدم ، وبكى عليه ، ورفض أن يتعزى . وقال : إنى أنزل إلى إبنى نائحاً إلى الهاوية (تك٣٧: ٣٣- ٣٥) . ثم يأتيه الخبر أنه لا يزال حياً ، بعد ٢٢ عاماً من الحزن عليه . فكان تأثير هذا الخبر عليه لأول وهلة، أنه "جمد قلبه ولم يصدقهم" (تك٤٥: ٢٦) . ثم عاد وتقبل الخبر، لما رأى العجلات الفرعونية التى أرسلها يوسف إليه. فرُدّت روحه إليه وقال "يوسف إبنى حيّ . كفى . أذهب وأراه قبل أن أموت" ...

الله يطمئن يعقوب

فى نزول أبينا يعقوب إلى مصر أثناء المجاعة ، اختلف عن جده ابراهيم الذى قال الكتاب عنه "وحدث جوع فى الأرض. فانحدر ابرآم إلى مصر ليتغرب هناك، لأن الجوع فى الأرض كان شديداً " (تك١٢: ١٠) . إنها نفس الظروف التى دعت يعقوب أيضاً للنزول إلى مصر. ولكن وجه الخلاف أن جده ابرآم نزل بمشيئته الخاصة، وليس بمشيئة الله الذى سبق أن قال له "اذهب من أرضك .. إلى الأرض التى أريك" (تك١٢: ١) ... لذلك وجد متاعب كثيرة فى مصر نجاه الله منها (تك١٢: ١٤- ١٩) ...

أما يعقوب فظهر له الله فى رؤيا . وقال له "لا تخف من النزول إلى مصر .. أنا أنزل معك إلى مصر .." (تك٤٦: ٢) .

يعقوب لم ينزل ، دون الإتصال بالله أولاً . "فلما أتى إلى بئر سبع، ذبح ذبائح لإله أبيه اسحق" (تك٤٦: ١) . .. إنه لا يريد أن يتلقى الدعوة إلى السفر من يوسف فقط، وإنما من المذبح أيضاً . فأتاه الرد إذ "كلمه الله فى رؤى الليل" وقال له "أنا الله إله أبيك. لا تخف من النزول إلى مصر ، لأنى أجعلك أمة عظيمة هناك. أنا أنزل معك إلى مصر".

عجيبة هى علاقة الله بيعقوب ...

يعقوب الذى خدعه من قبل خاله لابان . بل خدعه أبناؤه من جهة قميص يوسف الذى غمسوه فى الدم . وما كان يحتمل أن يقع فى خديعة أخرى منهم . فطمأنه الله أن يوسف سيضع يده على عينيك (تك٤٦: ٤) .

حسناً قيل إن "الله أحب يعقوب" (رو٩: ١٣) .

نعم ، أحب هذا الضعيف الذى لم تكن له القوة أن يقاوم الشر .. الذى لم يستطع أن يقاوم عيسو، بل هرب منه . فى رجوعه إلى بيت أبيه صلى إلى الله قائلاً للرب "نجنى من يد أخى، من يد عيسو، لأنى خائف منه أن يأتى ليضربنى الأم مع البنين " (تك٣٢: ١١) . نعم يعقوب هذا الضعيف الذى لم يستطع أن يقاوم خاله لابان لما خدعه وزوّجه ليئة بدلاً من راحيل (تك٢٩: ٥) .. كذلك لم يستطع أن يقاوم أولاده فى موقفهم مع يوسف أخيهم (تك٣٧) . ولا استطاع أن يقاومهم فى غدرهم بشكيم وكل قبيلته، فقتلوهم جميعاً بسبب دينة أختهم (تك٣٤) . كما لم يستطع أن يقاوم ابنه البكر رأوبين ، لما صعد على فراشه وزنى مع بلهة سرية أبيه (تك٣٥: ٢٢) . وسمع يعقوب ولم يفعل شيئاً !! .

لذلك كان ملاك الرب مع هذا الضعيف باستمرار .

هذا الذى قال عنه فى مباركة افرايم "الملاك الذى خلصنى من كل شر، يبارك الغلامين" (تك٤٨: ١٦) . وقال فى عرفانه بعمل الله معه "الله الذى يرعانى منذ وجودى إلى هذا اليوم" (تك٤٨: ١٥) . الله أيضاً طمأنه فى رؤيا الليل ، لينزل إلى مصر محاطاً برعاية الله له . فنزل إلى هناك مع كل أسرته . وكانت جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعين نفساً (تك٤٦: ٢٧) .

ووصل يعقوب إلى مصر فى موكب كمواكب الملوك .

وصل راكباً فى عجلات فرعون التى أرسلها إليه إبنه يوسف ..

إنها أول مرة فى حياته يركب مثل هذه العجلات الملكية ، كأب لمن قيل عنه إن الله جعله أباً لفرعون .. وربما أول مرة فى حياته وحياة أولاده يلبسون الحلل الفخمة التى أرسلها معهم يوسف .

وكان من إكرام يوسف لأبيه ، أنه ذهب لاستقباله فى الطريق.

شدّ يوسف مركبته ، وصعد لاستقبال أبيه إلى جاسان (تك٤٦: ٢٩) . ولو عرفنا أن أرض جاسان فى مكان محافظة الشرقية، نعرف مقدار المسافة التى قطعها يوسف من العاصمة، حتى وصل بمركبته إلى جاسان لاستقبال أبيه .. هذا الثانى فى المملكة ، لم ينتظر حتى يصل أبوه، ويستقبله فى مجيئه . إنما هو الذى يذهب إليه، ويقابله فى الطريق. لكى يعرف الجميع عظمة هذا الراعى الذى يذهب إليه المتسلط على كل أرض مصر .

"ولما ظهر له وقع على عنقه ، وبكى على عنقه زماناً" (تك٤٦: ٢٩) .

إنها العاطفة المخزونة مدى ٢٢ عاماً ، تنفجر الآن فى عناق وفى دموع .. هنا اللسان يعجز عن الكلام . إنما الحب هو الذى يعبر عما فى القلب من مشاعر . حب الإبن لأبيه الذى قضى كل فترة شبابه محروماً من حنان أبيه الذى أحبه وفضّله على كل أخوته. وحب الأب لإبنه الذى ظن أنه مات، وناح عليه أكثر من عشرين سنة .

وأخبر يوسف فرعون بمجئ أبيه وأخوته ، وقدّمهم إليه .

يوسف نائب فرعون ، لم يخجل من أن أباه وأخوته رعاة .

لم يستح منهم ولا من غنمهم وبقرهم .. هناك أشخاص يستحون من فقر أقربائهم . أما يوسف فلم يكن هكذا . قد يحدث أن بواباً يقوم بالإنفاق على إبنه فى التعليم حتى يصير طبيباً . وإذا بهذا الإبن الطبيب يستحى من الإنتساب إلى أب بواب .. محبته لنفسه ولسمعته تطغى على محبته لأبيه ...

أما يوسف فأدخل أباه الراعى إلى فرعون ، وأوقفه أمامه .

فاحترمه فرعون ، لأجل إبنه ، ولأجل سنّه ونعمة الله عليه . وسأله عن سنى حياته . فأجاب يعقوب "أيام سنى غربتى مائة وثلاثون سنة ، قليلة وردية ، ولم تبلغ إلى أيام سنى حياة آبائى فى أيام غربتهم" (تك٤٧: ٩) . قال هذا لأن أبا الآباء ابراهيم مات وعمره ١٧٥ سنة (تك٢٥: ٧) . كذلك عاش اسحق ١٨٠ سنة (تك٣٥: ٢٨) .

وحسناً أن يعقوب اعتبر حياته أيام غربة .

كذلك قال عن حياة آبائه "أيام غربتهم" . ولعل ذلك كان درساً لفرعون . وفى هذا اللقاء بين يعقوب وفرعون، قال الكتاب مرتين "وبارك يعقوب فرعون" (تك٤٧: ٧، ١٠). هنا القداسة أعلى من الملك . فيمكن أن رجل الله يبارك رجل العرش والحكم والدولة، كما بارك يعقوب فرعون ...

إن إخلاص يوسف لفرعون ، جعله يكرم أباه وأخوته .

حكمة يوسف وأمانته فى عمله، وانقاذه لمصر فى أيام المجاعة.. كل ذلك جعل فرعون يحترمه، ويحترم أباه، ويستقبل أخوته، ويكرم هذه الأسرة كلها .. ويقول ليوسف "أرض مصر قدامك، فى افضل الأرض اسكن أباك واخوتك. ليسكنوا فى أرض جاسان. وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة، فإجعلهم رؤساء مواشٍ على التى لى" (تك٤٧: ٥، ٦) .

وعال يوسف أباه وأخوته وكل بيت أبيه .

"وسكنوا فى أرض جاسان ، وتملكوا فيها ، وأثمروا وكثروا" (تك٤٧: ٢٧) وهناك

ملاحظة نقولها عن حياة يعقوب .

لما رأى يعقوب إبنه يوسف بعد طول أيام نواحه عليه . قال له - بعد أن بكى على عنقه "أموت الآن بعد أن رأيت وجهك أنك حي". ولكنه لم يمت بعد أن رآه ، بل عاش ١٧ سنة مع يوسف في أرض مصر (تك٤٧: ٢٨) . حينما رأى يوسف وفرعون كان عمره ١٣٠ سنة (تك٤٧: ٩). إذن كانت كل أيام عمره ١٤٧ عاماً .

أيام يعقوب الأخيرة

لما أحس أن أيامه قد قربت ، أخذ عهداً من يوسف أن يدفنه في مغارة المكفيلة .

هناك حيث دفن ابراهيم جده (تك٢٥: ٩) . وكانت قد دفنت هناك جدته سارة (تك٢٣: ١٩) "وفي مغارة المكفيلة أمام ممرا التي هي حبرون في أرض كنعان" . وهناك أيضاً دفن أبوه اسحق (تك٣٥: ٢٧- ٢٩) . وأمه رفقة، وزوجته ليئة (تك٤٩: ٣١) .

إنه أمر مؤثر أن يطلب إنسان أن ترقد عظامه إلى جوار عظام آبائه .

وهكذا استدعى يعقوب إبنه يوسف ، إبنه الذي يأتمنه على وصيته. وقال له : "اصنع معي معروفاً وأمانة. فلا تدفني في مصر. بل أضطجع مع آبائي . فتحملني من مصر، وتدفني في مقبرتهم " فحلف له يوسف . وسجد يعقوب على رأس عصاه" (تك٤٧: ٢٦- ٣١) .. لعل في ذلك درساً للذين يسألون عن شرعية حرق جثث آبائهم وأقربائهم .

ليست فقط الأرواح تتجاور، وإنما العظام أيضاً. وهكذا فعل أبنه يوسف أيضاً فيما بعد، فأوصى من جهة عظامه (عب١١: ٢٢) .

بركة ونبوءة

على أن يعقوب قبل أن يموت بارك أولاده ، وابني يوسف (افرايم ومنسى) .

افرايم ومنسى : أحضرهما يوسف أمام أبيه لكي يباركهما . ففرح بهما يعقوب واحتضنهما وقال ليوسف "لم أكن أظن أني أرى وجهك . وهوذا الله قد أراني نسلك أيضاً" (تك٤٨: ١١) . ومنحهما يعقوب نصيباً كابنين من أبنائه ، كرأوبين وشمعون. أي صار ليوسف بابنيه سبطان من الأسباط الإثنى عشر ، أي نصيب البكر وسط أولاد يعقوب . لذلك حينما نذكر أسماء الأسباط، نذكر بينها سبطي افرايم وسبط منسى، بدلاً من قولنا سبط يوسف ..

أتى يوسف بابنيه إلى أبيه "وسجد بوجهه إلى الأرض" "ووضع يعقوب يديه بفطنة" على رأسيهما . يده اليمنى على الصغير افرايم ، واليسرى على الكبير منسى.

وباركهما . واستاء يوسف . "وأمسك بيد أبيه اليمنى، لينقلها من رأس افرايم إلى رأس منسى" قائلاً ليس هكذا يا أبى . لأن هذا هو البكر ، ضع يمينك عليه" (تك٤٨: ١٧، ١٨).

لا . ليس هكذا يا يوسف . أبوك بروح النبوة تصرف بفطنة .

إن يعقوب فى شيخوخته كان قد استعاد شبابه الروحى .

كانت له أخطاء وهو صغير . ولكن عندما حنكته التجارب وصقلته الآلام ، كانت صلته بالله قد تعمقت أكثر فأكثر . وكانت شيخوخته فيها بركة ونبوة .

بروح النبوة رفض أن يغير وضع يديه على رأسى افرايم ومنسى. وقال ليوسف "علمت يا ابنى علمت. هو أيضاً يكون شعباً. وهو أيضاً يصير كبيراً . ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه.." "وقدّم افرايم على منسى" (تك٤٨: ١٩، ٢٠) . وكانت هذه نبوءة منه. وتحققت فعلاً . وهناك نبوءة أخرى ذكرها يعقوب . فقال ليوسف "ها أنا أموت. ولكن الله سيكون معكم ، ويردكم إلى أرض آبائكم " (تك٤٨: ٢١). وتحققت هذه النبوءة ، حينما عبروا البحر الأحمر واجتازوا من سيناء إلى أرض كنعان .

وغير هاتين النبوءتين ، قال نبوءات أخرى عن مستقبل أبنائه (تك٤٩) .

دعاهم وقال لهم "اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام" (تك٤٩: ١) . وحسبما قال لكل واحد هكذا كان .

قال لرأوبين بكره "..لا تتفضل ، لأنك صعدت على مضجع أبيك، دنسته" .

ووبخ شمعون ولاوى لقتلهما أهل شكيم. فقال عنهما "آلات ظلم سيوفهما.. ملعون غضبهما فإنه شديد، وسخطهما لأنه قاسٍ" .

ومدح يهوذا سبط الملك الذى جاء منه المسيح". وقال له "إياك يحمد أخوتك.. يسجد لك بنو أمك" وقال "لا يزول قضيب من يهوذا، ولا مشترع من بين رجليه، حتى يأتى شيلون، وله يكون خضوع شعوب" ..

وكلّم الباقين أيضاً بما سيكون . يقول الكتاب "هذا ما كلمهم به أبوهم وباركهم . كل واحد بحسب بركته باركهم" (تك٤٩: ٢٨) . وقد كان .

نلاحظ هنا أن البركة لم تمنع العقوبة والتوبيخ . كما حدث بالنسبة إلى رأوبين، وبالنسبة إلى شمعون ...

موت يعقوب

ولما فرغ يعقوب من توصية بنيه .. أسلم الروح ، وانضم إلى قومه. ووقع يوسف على وجه أبيه، وبكى عليه وقبله" (تك٥٠: ١).

إن يوسف هو أكثر إنسان قيل عنه في سفر التكوين إنه بكى.

بكى لما كشف شخصيته لأخوته (تك٤٥: ٢) . وبكى على عنق بنيامين شقيقه (تك٤٥: ١٤) "وقبل جميع أخوته وبكى عليهم" (تك٤٥: ١٥) . ولما رأى أباه "وقع على عنقه ، وبكى على عنقه زماناً" (تك٤٦: ٢٩) . وبكى لوفاة أبيه .

وكان جناز يعقوب مهيباً جداً (تك٥٠) .

أمر يوسف عبيده الأطباء فحنطوه .. وبكى عليه المصريون سبعين يوماً . ولما كملت أيام بكائه ، استأذن يوسف من فرعون أن يذهب ويدفن أباه في أرض كنعان حسبما أوصاه. "وصعد معه جميع عبيد فرعون وشيوخ مصر" ، ومركبات وفرسان . "فكان الجيش كثيراً جداً" (تك٥٠: ١– ٩) . ولما عبروا الأردن "ناحوا هناك نوحاً عظيماً وشديداً جداً . وصنع لأبيه مناحة سبعة أيام (تك٥٠: ١٠) . وحمله بنوه إلى أرض كنعان ، ودفنوه في مغارة المكفيلة (تك٥٠: ١٣) .

وعاد يوسف وأخوته إلى مصر مع جميع الذين صعدوا معهم .

وخاف أخوة يوسف ، لئلا يضطهدهم يوسف بعد موت أبيهم، ولكنه طمأنهم .

طلبوا منه الصفح .. وقالوا له "أبوك أوصى قبل موته قائلاً: هكذا تقولون ليوسف: اصفح عن ذنب أخوتك وخطيتهم. فإنهم صنعوا بك شراً.. فالآن اصفح عن ذنب عبيد إله أبيك" (تك٥٠: ١٥– ١٧) . ووقعوا أمامه وقالوا له ها نحن عبيدك. فبكى يوسف حين كلموه. وقال لهم : لا تخافوا .. أنتم قصدتم بي شراً، أما الله فقصد به خيراً ... فالآن لا تخافوا . أنا أعولكم وأولادكم .. فعزاهم وطيب قلوبهم (تك٥٠: ١٧– ٢١) .

كانوا يظنون في يوسف ما ليس فيه من انتقام. ما كانوا يعرفون معدن يوسف بعد ونوع نفسيته. أما هو فكان أسمى بكثير مما جال في أفكارهم. كان نبله أقوى من شرهم. وكان صفحه أسمى من خطيئتهم ضده ...

موت يوسف

عاش يوسف مائة وعشر سنين ، أى أربعة وأربعين سنة بعد موت أبيه. ورأى الجيل الثالث لأفرايم . استحلف أخوته أن يحملوا عظامه من مصر (تك٥٠: ٣٢- ٣٦) .

وتنبأ يوسف عن خروج أخوته من أرض مصر (تك٥٠: ٢٤) .

وفى ذلك قيل فى الرسالة إلى العبرانيين "بالإيمان عند موته، ذكر خروج بنى إسرائيل، وأوصى من جهة عظامه " (عب١١: ٢٢) .

وهكذا تنبأ ، وكان أيضاً من رجال الإيمان .

وفى خروج بنى إسرائيل من مصر، قيل فى سفر الخروج "وأخذ موسى عظام يوسف معه . لأنه كان قد استحلف بنى إسرائيل بحلف قائلاً :إن الله سيفتقدكم، فتصعدون عظامى من هنا معكم" (خر١٣: ١٩) .

بركة يعقوب أبى الآباء ، وإبنه يوسف الصديق ، فلتكن معنا جميعاً .

كتب
قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

كتب روحية

1- إنطلاق الروح
2- معالم الطريق الروحي
3- الإنسان الروحي
4- الوسائط الروحية
5- حياة الإيمان
6- حياة الرجاء
7- المحبة قمة الفضائل
8- مفاهيم
9- خبرات روحية (ج1)
10- خبرات روحية(ج2)
11- الروح القدس وعمله فينا
12- العظة على الجبل
13-مقالات روحية بالجمهورية
14- الدموع
15- الهدوء
16- الوجود مع الله
17- الله وكفى
18- حياة الشكر
19- حياة الفضيلة والبر
20- من هو الإنسان

صلوات

21- صلاة الشكر والمزمور الخمسين
22- أبانا الذى
23- مزامير الغروب
24- يستجيب لك الرب
25- يارب لماذا
26- يارب لا تبكتني (مز6)
27- تأملات فى مزامير باكر

حروب روحية

28- حروب الشياطين
29- الحروب الروحية
30- الغضب
31- الإدانة

من الميلاد إلى القيامة

32-كيف نبدأ عاماً جديداً
33- تأملات فى الميلاد
34- من وحى الميلاد
35- روحانية الصوم
36- التجربة على الجبل
37- تسبحة البصخة
38- أسبوع الآلام
39- خميس العهد
40- الجمعة الكبيرة
41- كلمات المسيح على الصليب
42- تأملات فى القيامة

الخدمة

43- التلمذة
44- الغيرة المقدسة
45- كيف نعامل الأطفال
46- آيات للحفظ (أبجدية)
47- مسابقات فى الكتاب المقدس
48- الخدمة الروحية (ج1)
49- الخدمة الروحية (ج2)
50- الخدمة الروحية (ج3)

لاهوت وعقائد

51- الزوجة الواحدة
52- الخلاص
53- بدعة الخلاص فى لحظة

٥٤- المطهـــــر
٥٥- الكهنـــوت
٥٦- لاهـوت المسـيح
٥٧- اللاهـوت المقـارن
٥٨- طبيعـة المسيـح

الوصايا العشر

٥٩ إلى ٦٢ - (٤كتب)

شخصيات

٦٣- آدم وحواء/قايين وهابيل
٦٤- يعقـوب ويوسـف
٦٥- موسـى وفرعـون
٦٦- يونــــان
٦٧- مـــــارمرقس
٦٨- الأنبـا أنطونيـوس
٦٩- القمـص ميخـائيل إبراهيم

حياة التوبة

٧٠- حياة التوبة والنقاوة
٧١- اليقظـة الروحيـة
٧٢- السـهر الروحـي
٧٣- الرجـوع إلى اللـه
٧٤- مخافة الله

كلمة منفعة

من ٧٥ إلى ٧٨ (٤كتب)

سنوات مع أسئلة الناس

من ٧٩ - ٨٧ (٩كتب)

انتظر كتباً أخرى

الرعايـــة
الأنـاجيل الأربعـة
الأجبيـــة
حيــاة داود
اللـه والإنسـان
دم ونـــار
مصطلحات الكتاب المقدس
الخدمـــة (ج٤)
حـول لاهـوت المسـيح (ج٢)

الكتاب المقبل

يصدر قريباً بمشيئة الله كتابنا التالي عن :

حياة داود النبي

هو سلسلة من التأملات الروحية في حياة هذا النبي العظيم الشـاعر، العميق والرقيق فـي مزاميره. وأيضاً هذا الملك الممسوح من الله: في قوته ، وفي ضيقاته ، وفـي عمـل اللـه معه ...

الفهرست

صفحة



في هذا الكتاب



بسم الآب والإبن والروح القدس

الإله الواحد آمين

نحدثك هنا عن أبينا يعقوب ،

والكثير من مشاكله :

★مشاكله فى الحصول على البكورية والبركة .

★مشاكله مع أخيه عيسو .

★مشاكله مع خاله لابان .

★مشاكل زوجتيه وأولاده .

★مشكلة ابنه يوسف مع أخوته

★أيضاً : الله فى حياته .

ثم ندخل فى حياة يوسف :

★فى بيت فوطيفار وفى السجن.

★أحلامه ورؤاه وحكمه لمصر.

★لقاء عجيب ومثير مع أخوته.

★اللقاء مع أبيه .

★وفاة يعقوب ثم وفاة يوسف .

فى كل هذا : كيف كان الله يعمل؟ وكيف سادت مشيئته .

البابا شنوده الثالث



الثمن ١٥٠ قرش

